كفاح الأزهر

تأليف

د. محمد مورو

الناشر

مكتبة الإيمان .. المنصورة

بطاقة الفهرسة

فهرسة الهيئة المصرية العامة للكتاب .

مورو ، محمد

كفاح الأزهر : لمحة تاريخية / تأليف محمد مورو . ـ ط١ . ـ

المنصورة : مكتبة الإيمان ، ٢٠٠٦ .

٣٢٠ ص ، ٢٤ سم

تدمك 2 ـ 317 ـ 290 ـ977

١ـ الأزهر (جامع) .

أ ـ العنوان .

٢١٥,٩٦٢١٦

رقم الإيداع : ٩٦٣٣/ ٢٠٠٦

تقديم

المسجد هو محور الحياة في المجتمع الإسلامي، ومنذ أن بعث الله تعالى رسوله الأمين محمد ﷺ فإن للمسجد دورًا مركزياً في حياة المجتمع المسلم.

ولم يكن عبثًا أن الرسولﷺ منذ وصل إلى المدينة المنورة مهاجراً. أي: منذ بدأ قيام كيان اجتماعي للمسلمين قام على الفور ببناء مسجد ومسجد الرسول بالمدينة المنورة. وكان المسجد على عهد الرسولﷺ هو المكان الطبيعي للقاء المسلمين – وهو معهد العلم – وفيه تعقد الاجتماعات وتبرم المعاهدات ومنه تنطلق الجيوش – وبداخله تعقد عمليات البيع والشراء والقضاء والزواج – وفيه يتم تنظيم الدروس الدينية والعلمية للمسلمين – بل إن صلاة الجمعة ذاتها التي فرضها الله على المسلمين وجعل من الضروري أداءها في المسجد الجامع في جماعة تعد في حد ذاتها اجتماعا سياسياً أسبوعياً يناقش المسلمون من خلال خطبة الجمعة مشاكل المجتمع الإسلامي والتحديات التي تواجهه والمهام الملقاة على عاتقه – واستمر الأمر على هذا المنوال في عهود ازدهار الإسلام وأيام الحكم الإسلامي الصحيح – ومع ظهور الانحراف في المجتمع الإسلامي وخاصة على مستوى شكل الحكم السياسي قام المسجد بدوره في النصح والإرشاد بل وفي احتضان حركات الثورة والانتفاض من أجل العودة إلى العلاقات الإسلامية الصحيحة على مستوى الفرد والجماعة؛ ونظام الحكم ليس هذا فحسب – بل إن المسجد كان دائماً موطناً لحركات الاحتجاج الاجتماعي والحركات المطالبة بالجهاد ضد الغزو الخارجي مما كان يشكل منعطفاً هائلاً على الحكام يضطرون معه إلى دخول المعارك ضد الكفار – وكان المسجد يقوم بدوره في التعبئة الجماهيرية وتنظيم المتطوعين للجهاد بالنفس والمال ولعل تجربة ابن تيمية والعز بن عبد السلام تؤكد هذا المعنى في مواجهة التتار والصليبيين.

واكتسبت العلاقة التاريخية بين الأمة والعلماء من خلال المسجد بعدًا هامًا وأصبحت شرطا ضروريا من شروط الانتصار الإسلامي على قوى الكفر الخارجي أو الاستبداد الداخلي على حد سواء، وأصبح فهم هذه العلاقة إحدى الأهداف الثابتة لأعداء أمتنا من

استعمار أو عملاء محليين أو علمانيين أو حكام مستبدين أو غيرهم.

والحديث عن كفاح الأزهر - هو حديث عن العلاقة التاريخية بين العلماء والجماهير من خلال المسجد - وهو في ذات الوقت حديث عن كفاح الشعب المسلم في مصر ضد الظلم وضد الغزو في نفس الوقت وهو أيضا حديث عن الأساليب التي اتبعها الاستعمار لترويض الشعب المسلم في مصر عن طريق فصم العلاقة التاريخية المتميزة بين الأمة والعلماء وتقليص دور المسجد؛ ليكون مجرد مكان للصلاة دون أن يمتد لأداء دوره الاجتماعي المنشود.

لمحة تاريخية

قام القائد الفاطمي جوهر الصقلي بافتتاح الجامع الأزهر بصلاة الجمعة به في ٧ من رمضان سنة ٣٦١هـ (٢١ يونيه ٩٧٢م) - وكان قد بدأ في إنشاء الجامع الأزهر قبل ذلك بعامين عقب الانتهاء من بناء القاهرة الفاطمية بعدة أشهر وذلك كله في عهد المعز لدين الله الخليفة الفاطمي.

وقد لعب الأزهر دورًا كبيرًا في احتضان العلم - كغيره من المساجد - إلا أنه امتاز عن غيره بانتشار مدارس الفقه وتنوعها داخله - وبرغم أن مذهب الفاطميين كان « إسماعيليا » إلا أنهم سمحوا بتدريس أربعة مذاهب داخل الأزهر وهي المذهب الشافعي - المذهب المالكي - مذهب الشيعة الإمامية - مذهب الشيعة الإسماعيلية[١]. كما كان الأزهر يحظى بحوالي $\frac{٧}{١٥}$ من قيمة الأموال المقررة لدعم العلم والعلماء والتلاميذ الدارسين في الأزهر والمساجد إبان الحكم الفاطمي لمصر[٢]. ولم يقتصر دور الأزهر في العصر الفاطمي على احتضان مدارس الفقه الإسلامي بل امتد ليشمل رعاية كل العلوم والفنون. فالحسن بن الهيثم عالم الرياضيات والطبيعيات المشهور كان يقيم بالأزهر عندما حل بمصر في القرن الحادي عشر الميلادي[٣]. ويحفظ لنا التاريخ من الأسماء المشهورة لعلماء الأزهر في العصر

---

(١) محمد كمال محمد المحامي، الأزهر جامعا وجامعة - سلسلة البحوث الإسلامية، ١٩٨٦.

(٢) خطط المقريزي، ج٢، ص ٢٧٤.

(٣) القفطي، أخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ١١٤.

الفاطمي اسم المؤرخ القاضي أبا عبد الله محمد بن سلامة القضاعي المتوفى سنة ٤٥٤هـ (١٠٦٢م). وقد كان القضاعي شافعي المذهب ولم يمنع هذا من ولايته القضاء والتدريس في الأزهر نظرا للتسامح وسعة الأفق الذي اتسم بهما عصر الفاطميين.

وفي عهد الدولة الأيوبية ظهر العديد من المدارس العلمية بجوار الأزهر ولم يقتصر تدريس العلوم والفقه على الأزهر. ونقلت الخطبة إلى الجامع الأنور وظلت الخطبة معطلة من الجامع الأزهر مائة عام. وبرغم تقلص مكانة الأزهر في العهد الأيوبي لأسباب سياسية فإنه ظل موئلا للعديد من العلماء مثل ابن الفارض الذي أقام في الأزهر وهو شاعر وعالم بالمواريث، وكذلك نزل بالأزهر العالم العربي الشهير عبد اللطيف بن يوسف البغدادي الذي نزل بالقاهرة (٥٨٣هـ - ١١٨٧م) وكان يقوم بالتدريس في الأزهر ويحكى أنه كان هناك من يقرأ الطب وغيره وفيما يقول: « وكانت سيرتي في هذه المدة أن أقرئ الناس بالجامع الأزهر في أول النهار إلى الساعة الرابعة ووسط النهار يأتي من يقرأ الطب وغيره وآخر النهار أرجع إلى الجامع الأزهر ويقرأ قوم آخرون، وفي الليل أشتغل مع نفسي - ولم أزل على ذلك حتى توفي الملك العزيز »[١].

وأعاد الظاهر بيبرس الخطبة إلى الأزهر سنة ٦٦٥هـ - ١٢٦٦م بعد أن ظلت معطلة به ما يقرب من المائة عام. وازدهرت مكانة الأزهر كجامعة إسلامية في ذلك الوقت بسبب تدمير بغداد على يد التتار وضغط الإفرنج على المسلمين في الأندلس وبالتالي كان الأزهر هو الموئل الباقي لعلماء المشرق والمغرب وكانت العلوم الدينية من أصول وتفسير وحديث وفقه وغيرها وكذلك علوم اللغة من نحو وصرف وأدب وبلاغة وغيرها فضلاً عن العلوم الرياضية والحساب والجبر والهندسة والفلك وعلم الميقات والطبيعة والكيمياء والمنطق والتاريخ وتقويم البلدان ودراسة الطب وغيرها من العلوم تدرس في الأزهر[٢]. وتخرَّج من الأزهر طائفة من أنبغ العلماء في تاريخ الإسلام مثل ابن خلدون الذي تولى قضاء المالكية في

---

(١) محمد عبد الله عنان، مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية، ص ٩٧، نقلا عن ابن أبي أصيبة.

(٢) محمد كمال محمد المحامي، المرجع السابق، ص ٥٣.

مصر على عهد السلطان برقوق (٧٨٤هـ - ٨٠٨هـ) وألقى الدروس في الأزهر - وكذلك ابن حجر العسقلاني عالم الحديث المعروف (٧٩٣هـ - ٨٥٢هـ) - وكذلك الشيخ عبد الوهاب الشعراني وهو فقيه متصوف كبير بلغت مؤلفاته سبعين مؤلفًا وكذلك كمال الدين الدميري (٧٥٠هـ - ٨٠٨هـ) وكان عالما ومتفلسفا وأديبا واشتهر عنه كتابه (حياة الحيوان الكبرى) وفيه وصف للحيوانات وعاداتها وما يروى عنها من القصص.

وألحق بالأزهر في عهد المماليك عدد من المدارس مثل المدرسة الطيبرسية والمدرسة الأقبغاوية والمدرسة الجوهرية كما ألحقت به زاوية للعميان يقيم فيها الدارسون من العميان (١١٤٨هـ)، وبلغ عدد المقيمين في الأزهر في زمن المقريزى، أي: النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادي ٧٥٠ رجلا ما بين عجم وزيالعة (نسبة إلى زيلع بالصومال) ومغاربة وأرياف مصر وغيرهم. ويقول المقريزى: (ولكل طائفة رواق يعرف بهم فلا يزال الجامع عامراً بتلاوة القرآن ودراسته وتلقينه والاشتغال بأنواع العلوم ومجالس الوعظ وحلق الذكر).

وبدخول مصر إلى الحكم العثماني سنة ١٥١٧ اهتم العثمانيون بالأزهر فجدده الوالي محمد باشا ١٥٩٥ كما تجددت الأروقة مثل رواق الأتراك والسليمانية ثم قام عبد الرحمن كتخدا القازدوغلى بإنشاء الجامع إنشاء آخر سنة ١٧٥٤ فيما سمي بالعمارة الكبرى للأزهر.

ويمكننا أن ندرك أن الأزهر كان جامعة عالمية بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى إذا عرفنا أنه قبل التجديد الأخير فيما بعد ١٩٥٢ كان يضم ٣٧ رواقا تضم مختلف أجناس العالم مثل: الشوام، الأتراك، المغاربة، الصعايدة، الفلاته (أهل أفريقيا الوسطى)، البرابرة، الشرقاوية، السليمانية، الجاوة، الحرمين، الجاروة، الفيومية، الأقبغاوية، الشنوائية (أهل الريف)، الفشنية، السنارية، اليمنية، الأكراد، البغدادية، الهنود وغيرها من الأروقة بل وبها رواق للأقباط. وقد ألغيت هذه الأروقة واستبدلت بمدينة جامعية حديثة تسمى الآن مدينة البعوث الإسلامية.

وهكذا يعد الأزهر أقدم جامعة في العالم حيث إن عمر تلك الجامعة أكثر من ألف عام متصلة ظلت تدرس لتلامذتها علوم الدين والدنيا بل ويتم الإنفاق فيها على طلاب العلم من مختلف الجنسيات.

الأزهر موطن المعارضة

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الفرائض الإسلامية الملزمة لجميع المسلمين كل حسب طاقاته وهي ألزم للعلماء بالطبع لمعرفتهم بأحكام الشريعة الغراء ولكونهم ورثة الأنبياء وبالتالي فإن دورهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يكون أكثر وجوبا وأكثر أثرا. ولعل تلك الفريضة الهامة استهدفها الشرع الإسلامي الحنيف للحفاظ على حيوية المجتمع المسلم ودرأ ما يمكن أن يظهر فيه من مفاسد وانحرافات اجتماعية أو سياسية. وخلق رأى عام قوى وقادر على مواجهة أشكال الظلم أو الاضطهاد أو الخروج على الشرع وخاصة من قبل الحكام.

وكان من الطبيعي أن يكون الأزهر هو موطن المعارضة ومحور حركات الاحتجاج باعتباره جامعة علمية ومركز للقيادات الفكرية والعلماء من كافة الأجناس. وسوف نسرد عددا من الأمثلة في هذا الإطار.

كان قاضي القضاة شرف الدين محمد بن عبد الله الإسكندراني المعروف بابن عين الدولة في زمن السلطان الكامل بن العادل الأيوبي وكانت بمصر مغنية اسمها عجيبة قد أولع بها الكامل فكانت تحضر عنده ليلا وتغنيه في مجلس لهو - فاتفق أن عرضت قضية على ابن عين الدولة قاضي القضاة وكان السلطان الكامل شاهدًا فيها. ورفض قاضي القضاة شهادة السلطان. فاحتد السلطان وأصر على الشهادة - فقال له القاضي: لا أقبل شهادتك وكيف أقبلها وعجيبة تحضر إليك كل ليلة وتنزل صباحا وهي تتمايل سكرا على أيدي الجواري؟ فغضب السلطان وقال: يا كيواج (وهي كلمة شتم باللغة الفارسية) فقال القاضي: ما في الشرع يا كيواج اشهدوا أني عزلت نفسي ونهض إلى منزله وخاف السلطان أن ينتشر الأمر بسبب استقالة القاضي. فلحق به وأخذ يسترضيه حتى عدل وعاد للقضاء وأصر على رفض شهادة السلطان [1].

وتلك الحادثة توضح إلى أي مدى كان القضاة في ذلك العهد يحترمون أنفسهم وكيف

---

(١) محمد كمال محمد المحامي، المرجع السابق، ص ٥٣.

أنهم كانوا قادرين على رفض شهادة السلطان ذاته - بل وكيف كان السلطان يخشى بأس الرأي العام ويقوم بنفسه باسترضاء القاضي والنزول على أوامره.

وهذا عز الدين بن عبد السلام - قاضي قضاة دمشق الذي خرج منها مغاضبا لسلطانها الصالح إسماعيل بن العادل الأيوبي وذلك لتنازله للإفرنج عن صيدا وقلعة الشقيف - وحاولوا إرجاعه من الطريق ولكنه رفض - ولما قدم إلى مصر أكرمه الصالح نجم الدين أيوب وعينه في منصب قاضي القضاة وظل بمصر حتى توفي بها ٦٦٠هـ - ١٢٦٢م وفي مصر تصدى لبيع أمراء المماليك ومنهم نائب السلطان لأنه لم يصح عنده عتقهم وبذلك يصبحون ملكا لبيت المال وصمم على هذا ولم يستطع السلطان أن يمنعه وخضع لرأيه وباع المماليك فعلا بالمزاد بأغلى الأسعار وقبض ثمنهم وضمه إلى بيت المال[١].

وروي عنه أنه أسقط شهادة فخر الدين ابن شيخ الشيوخ ولم يعترض السلطان.

وهكذا فإن العلماء أمثال العز بن عبد السلام كانوا يرفضون موافقة الحكام على الصلح مع الصليبين - بل إن عز الدين بن عبد السلام ترك مركزا مرموقا في دمشق (قاضي القضاة) وهاجر إلى مصر لإعلان رفضه لهذا الصلح مع العدو التاريخي للأمة ولم يفكر في جاه أو منصب أو حتى خطر ذلك على أمانه الشخصي فقد كان المبدأ لديه أهم. وفي مصر التي هاجر إليها كان يصدع بالحق ويرفض شهادة ابن شيخ الشيوخ وكان يرفض فرض ضرائب جديدة على الشعب برغم الحاجة إليها للجهاد ومكافحة الصليبيين وصمم على أن يتم بيع المماليك بدلا من فرض الضرائب. أي: أنه واجه السلطان وواجه الجنود والضباط من المماليك برغم ما لهذا الأمر من خطر عليه من هؤلاء وهم أركان الدولة وقوتها المسلحة. وهذا يوضح إلى أي مدى كانت شجاعة هذا العالم الجريء - بل إن السلطان كان يرضخ لتلك المطالب ويصل به الأمر إلى تنفيذ كلام أركان حربه لتدبير نفقات الجهاد بدلا من فرض المزيد من الضرائب وهذا يدل على مبلغ احترام السلطان لأراء العلماء ومبلغ ما بلغه نفوذ العلماء ومبلغ ما وصل إليه الرأي العام من قوة تفرض نفسها على السلطان

---

(١) السيوطي - حسن المحاضرة.

وضباطه وجنوده.

ولدينا أيضاً تاج الدين عبد الوهاب المعروف بابن بنت الأعز الذي رفض موافقة السلطان الظاهر بيبرس على الخطبة من أكثر من جامع حيث أن مذهبه الشافعي يخالف ذلك ويرى وجوب الخطبة من جامع واحد في البلد الواحد[1]. ولم يستطع السلطان إجباره على تغيير رأيه أو تهديده أو قتله أو سجنه بل استحدث السلطان بيبرس نظام القضاة الأربعة للمذاهب الأربعة: (الشافعية - الحنابلة - المالكية - الحنفية) واستصدر فتوى بجواز ذلك من قضاة المذاهب الثلاثة الأخرى حيث أن مذاهبهم تبيح ذلك.

ويحكي السيوطي أيضا عن قاضي القضاة الحنفي تقي الدين محمد المعروف بابن دقيق العيد الذي كان يدخل على السلطان لاجيني فيقوم السلطان له ويقبل يده[2]- أي: أن السلطان يقبل يد العلماء وليس العكس !!.

وهذا كله يوضح أن الأزهر كانت له مكانته وأثره في الرأي العام وكان أغلب أمراء المماليك يهابون العلماء ويقدرونهم ويعملون حسابهم إذا كانوا يعبرون عن رأي الشعب ويحاولون بتدخلهم أن يمنعوا عن هذا الشعب عدوان الحكام الظالمين أو يخففوا من ثقل الضرائب وكان سلاحهم الفتاوى الشرعية وقفل الجامع الأزهر والامتناع عن التدريس وتحريض الأهالي على قفل الحوانيت والمتاجر وتعطيل الأسواق (الإضراب) والدعاء على أمراء المماليك من فوق مآذن الجامع الأزهر – أي: أن الأزهر كان إحدي المؤسسات الهامة في نظام الحكم المملوكي والعثماني. وهو صمام الأمان أو هو الوكيل الشرعي عن الأمة في مواجهة استبداد الحكام وهو قيادة الجماهير التي يعمل لها حسابها. بل إن سلاطين العثمانيين في إستانبول أنفسهم كان يحترمون العلماء ويخافون من نفوذهم. فقد ذكر أمين باشا سامي[2] في حوادث ٩٤٥هـ - ١٥٣٨م أن الشيخ شهاب الدين أحمد بن عبد الحق شيخ الأزهر قال للوالي داود باشا وكان من عبيد السراي بإستانبول: (أنت لا تصلح للحكم وأنت تحت الرق

(١ ، ٢) السيوطي – حسن المحاضرة.

(٢) أمين باشا سامي، تقويم النيل، ج٢، ص ١٩.

وما دمت غير معتوق فالأحكام باطلة) فهم الوالي بإعدامه فمنعه الجند - فلما رأى الوالي تعصب الجند للشيخ أبلغ الأمر إلى السلطنة فأرسلت ورقة بعتقه مع الشكر لشيخ الإسلام الذي لم تكن له مرتبات في دفاتر الحكومة حينذاك والذي لم يقبل أي هبة أو هدية من الوالي مع التشديد على الوالي بحسن السير مع الرعية والاستعانة بالعلماء في الحكم حسب الشريعة الإسلامية.

وفي سنة ١٢٠٠هـ ١٧٨٥م تسلط مماليك مراد بك على الناس بالمصادرات والهجوم على البيوت ونهبها بسبب وبغير سبب وثار الناس وذهبوا إلى شيوخ الأزهر فأيدهم الشيخ أحمد العدوي الشهير بالدردير - وكانت للدردير مكانة كبيرة عند الجميع فقال لهم: سنذهب باكر لنهب بيوتهم كما ينهبون ونموت شهداء أو ينصرنا الله وطلعوا على المآذن يصيحون ويلعنون المماليك وخاف إبراهيم بك قسيم مراد بك في الحكم وأكبر المماليك شأنا من استفحال الأمر فأرسل إلى الشيخ الدردير بأنهم مستعدون لرد المنهوبات أو دفع قيمتها وطلب من الشيخ الدردير كتابة قائمة بالمنهوبات وتعهد بأن يأتي بها من محل ما تكون واتفقوا على ذلك وقرأوا الفاتحة.

ولعل هذه الواقعة تؤكد مدى نفوذ العلماء وقدرتهم على تحريك الجماهير بل ومعرفة الجماهير لطريقها الطبيعي للاحتجاج والثورة على ظلم الأمراء، وهو الذهاب إلى الأزهر ومعرفة الجماهير أن العلماء هم القيادة الشرعية لهم. بل ووصول العلماء إلى حد الاستعداد لقيادة الجماهير لانتزاع حقوقها من الحكام بالقوة واعتبار ذلك جهادًا في سبيل الله فيه شهادة أو نصر «سنذهب باكر لنهب بيوتهم كما ينهبون ونموت شهداء أو ينصرنا الله».

وفي سنة ١٢٠٠هـ - ١٧٨٥م أيضا لما ساءت سيرة إبراهيم بك ومراد بك أرسلت الدولة العثمانية حسن باشا القبطان على رأس حملة لقمع الفتنة فقضى عليهما وهربا وهرب أيضا أتباعهما من المماليك وانطلق الجنود الأتراك في بيوت الأمراء المماليك الهاربين ينهبونها وأنزلوا ما بها من الجواري فباعوهن في المزاد - ولما حاول حسن باشا أن يأمر ببيع زوجاتهم وأولادهم تصدى له الشيخ محمد السادات والشيخ أحمد الدردير والشيخ أحمد العروس وقالوا: إن الشريعة تمنع بيع الأحرار وأمهات الأولاد فعدل عن ذلك.

وفي سنة ١٢٠٩هـ – ١٧٩٥م يحكى الجبرتي: « وفي شهر ذي الحجة وقع به من الحوادث أن الشيخ الشرقاوي حضر إليه أهالي الشرقية وشكوا من محمد بك الألفي وذكروا أن أتباعه حضروا إليهم وظلموهم وطلبوا إليهم ما لا قدرة لهم عليه واستغاثوا بالشيخ فاغتاظ وحضر إلى الأزهر وجمع المشايخ وقفلوا أبواب الجامع وذلك بعدما خاطب مراد بك وإبراهيم بك فلم يبديا شيئا ففعل ذلك ثاني يوم وقفلوا الجامع وأمروا الناس بغلق الأسواق والحوانيت ثم ركبوا في ثاني يوم واجتمع عليهم خلق كثير من العامة وتبعوهم وذهبوا إلى بيت الشيخ السادات وازدحم الناس على بيت الشيخ من جهة الباب والبركة بحيث يراهم إبراهيم بك وقد بلغه اجتماعهم فبعث من قبله أيوب بك الدفتردار فحضر إليهم وسلم عليهم ووقف بين أيديهم وسألهم عن مرادهم، فقالوا: نريد العدل ورفع الظلم والجور وإقامة الشرع وإبطال الحوادث والمكوسات التي ابتدعتموها وأحدثتموها، فقال: لا يمكن الإجابة إلى هذا كله فإننا إن فعلنا ذلك ضاقت علينا المعايش والنفقات، فقيل له: ليس بعذر عند الله ولا عند الناس وما الباعث على الإكثار من النفقات وشراء المماليك والأمير يكون أميرا بالإعطاء لا بالأخذ؟ فقال: حتى أبلغ، وانصرف ولم يحضر لهم بجواب وانفض المجلس وركب المشايخ إلى الجامع الأزهر واجتمع أهل الأطراف من العامة والرعية وباتوا بالمسجد وبعث مراد بك يقول: أجيبكم إلى جميع ما ذكرتموه إلا شيئين ديوان بولاق وطلبكم المنكسر من الجامكية ونبطل ما عدا ذلك من الحوادث والظلم وندفع لكم جامكية سنة تاريخه أثلاثا ثم طلب أربعة من المشايخ عينهم بأسمائهم فذهبوا إليه بالجيزة فلاطفهم والتمس منهم السعي في الصلح على ما ذكر ورجعوا من عنده وباتوا على ذلك تلك الليلة وفي اليوم الثالث حضر الباشا إلى منزل إبراهيم بك واجتمع الأمراء هناك وأرسلوا إلى المشايخ فحضر الشيخ السادات والسيد النقيب والشيخ الشرقاوي والشيخ البكري والشيخ الأمير وكان المرسل إليهم رضوان كتخدا إبراهيم بك فذهبوا معه ومنعوا العامة من السعي خلفهم ودار الكلام بينهم وطال الحديث وانحط الأمر على أنهم تابوا ورجعوا والتزموا بما شرطه العلماء عليهم وانعقد الصلح على أن يدفعوا سبعمائة وخمسين كيسا موزعة وعلى أن يرسلوا غلال الحرمين ويصرفوا غلال الشون وأموال الرزق ويبطلوا رفع المظالم المحدثة والكشوفيات والتفاريد والمكوس ما عدا

ديوان بولاق وأن يكفوا أتباعهم عند امتداد أيديهم إلى أموال الناس ويرسلوا صرة الحرمين والعوائد المقررة من قديم الزمان ويسيروا في الناس سيرة حسنة وكان القاضي حاضرا بالمجلس فكتب حجة عليهم بذلك وفرمن عليها (أي: وقع بإمضائه عليها) الباشا وختم عليها إبراهيم بك وأرسلها إلى مراد بك فختم عليها أيضا وانجلت الفتنة ورجع المشايخ وحول كل واحد منهم وأمامه وخلفه جملة عظيمة من العامة وهم ينادون حسب ما رسم ساداتنا العلماء بأن جميع المظالم والحوادث والمكوس بطالة من مملكة الديار المصرية وفرح الناس وفتحت الأسواق وسكن الحال على ذلك » .

وإذا حللنا تلك الانتفاضة الجماهيرية نجد أن ظلما قد وقع على أهالي بلبيس شرقية فلجأوا إلى علماء الأزهر بالقاهرة. أي: أن الجماهير تعرف قياداتها الطبيعية في الاحتجاج ومحاولات رفع الظلم والتصدي للحكام الظالمين. ونجد أن المطالب بدأت جزئية وهي رفع الظلم عن أهالي بلبيس وانتهت إلى مطالب عامة وهامة في نفس الوقت هي إبطال الضرائب الجديدة - إبطال أعمال السلب والنهب - دفع الرواتب المتأخرة للعلماء - إرسال صرة الحرمين الشريفين. ونجد أن الجماهير كلها ما لبثت أن التفت حول العلماء - ونجد أن العلماء اتخذوا من الأزهر مقرا لاجتماعاتهم. واستخدموا أساليب الاعتصام والإضراب والتظاهر - فهم قد اعتصموا بالأزهر وأغلقوا أبوابه، وقد دعوا إلى الإضراب وغلق الحوانيت والأسواق واستجاب لهم الناس والتجار على حد سواء، ونجد أن العامة قد ساروا مع العلماء في مواكب «مظاهرات».

ونجد أن العلماء قد نجحوا في الحصول على نص مكتوب أو وثيقة يتعهد فيها الأمراء بحقوق الشعب - ونجد أن هذا كله من إضراب - اعتصام - تظاهر.

تحريض للعامة وغيره لم يجد من يصفه بأنه مؤامرة. بل إن أمراء المماليك أنفسهم لم يقولوا مثلا: ما شأن الأزهر بالضرائب ؟! أو ما شأن العلماء بتلك المطالب؟ — أي: أن جميع الفرقاء ومن أمراء وحكام وعلماء وجماهير كانوا يعتبرون ويتصرفون على أساس أن الأزهر مؤسسة ذات دور اجتماعي لم يجرؤ أحد على انتقاده بل إن الباشا نفسه وهو ممثل للسلطان العثماني وكذلك قيادات المماليك وقعت اتفاقا مكتوبا مع العلماء. ولعل تلك الحادثة وغيرها تؤكد

أن الأزهر لم يكن مجرد جامعة علمية أو مسجدا جامعا للصلاة بل كان مؤسسة سياسية واجتماعية كانت تمارس دورها ودون أن يجرؤ أحد من الحكام على الاعتراض على هذا الدور أو القول بأن هذا ليس من شأن العلماء أو أن الأزهر يتدخل فيما لا يعنيه - وهكذا فإن دراسة النظام السياسي لحكم المماليك والعثمانيين لابد وأن يعطى الانطباع بأن الأزهر كان مؤسسة سياسية من مؤسسات الحكم في ذلك الوقت يعترف بها جميع الفرقاء ويعملون لها ألف حساب.

وإذا نظرنا إلى تصميم وبيئة النظام السياسي في مصر في عهد العثمانيين نجد أنه كان يسمح بهامش كبير من العمل للجماهير من خلال الأزهر وعلمائه بل نكاد نقول: إن السلطة العليا أو الحقيقية في ذلك الوقت كانت لعلماء الأزهر استنادا إلى الفتاوى الشرعية وإلي مساندة والتفاف الجماهير حولهم - وكان نظام الحكم يتكون من الوالي ويطلق عليه لقب الباشا وهو نائب السلطان العثماني ومدة ولايته سنة ما لم يصدر فرمان بتجديدها، والديوان ويتكون من مديري المديريات - ومديري المالية - وأمناء الخزانة - وأمير الحج - وقاضي القضاة - ورؤساء المشايخ والأشراف - وعلماء المذاهب الأربعة، ولهذا الديوان سلطة البت في شئون الحكومة الرئيسية ولهم نقض أوامر الوالي ولهم أيضا سلطة عزله، والمماليك وهم القوة العسكرية في البلاد ومهمتها الدفاع عن البلاد. وبالإضافة إلى تلك القوى الثلاث كان هناك عدد من الوظائف الهامة التي كان يتم التعيين فيها بقرار من السلطان مباشرة مثل محافظ القاهرة ورؤساء الموانى.

وكان تركيب السلطة بهذه الطريقة لا يسمح لإحدى القوى بالانفراد بالحكم مما جعل هناك مجالا واسعا لظهور الأزهر كقوة كبرى في الدفاع عن مصالح الجماهير وممارسة النفوذ على تلك السلطات. ويمكننا أن نعتبر أن الأزهر في ذلك الوقت كان هو القوة الحقيقية والكبرى بالنظر لتوازنات القوى بين القوى الحاكمة المتعارضة (الوالي - الديوان - المماليك) وبالنظر للدعم الجماهيري المستمر للعلماء. وهناك العديد من الأمثلة التاريخية في تلك الفترة التي تؤكد هذا ووفقا لكل من الجبرتي وجلال كشك فإنه في إحدى المرات تجاسر أحد المماليك ورفض حكما شرعيا بطلاق المرأة التي يغيب عنها زوجها - وهو قول معمول

به في المذهب المالكي فما كان من العلماء إلا أن ركبوا إليه. وشتموه وفرضوا رأيهم عليه - بل وأفرجوا عن الشيخ الذي أفتى بذلك - وكان المملوك قد اعتقله - .

يقول الجبرتي: «فصرخ عليه الشيخ الصعيدي وسبه وقال له: لعنك الله ولعن اليسرجي الذي جاء بك ومن باعك ومن اشتراك ومن جعلك أميرا وأخرجوا الشيخ عبد الباقي من الحبس فأخذوه وخرجوا وهم يسبون الأمير وهو يسمعهم ». أي: أن العلماء كانوا يشتمون الأمراء - بل ويعيرونهم بأصلهم - وأصل كل مملوك بالتالي - أي: أنهم كانوا أقوى من المؤسسة العسكرية من الناحية النظرية ومن الناحية العملية - فقد مارسوا بأنفسهم الأمر وأفرجوا عن الشيخ المعتقل.

ليس هذا فحسب بل إن المماليك أنفسهم كانوا يحتمون بالمشايخ وكانت بيوت المشايخ ذات حصانة خاصة لا يمكن الاعتداء على حرمتها أو اقتحامها. فعندما لجأ حسن بك الجداوي إلى الشيخ أحمد الدمنهوري قام أمراء محمد بك أبو الذهب بالذهاب إلى بيت الشيخ أحمد الدمنهوري في بولاق وطلبوا تسليم حسن بك الجداوي لهم - ولكن الشيخ الدمنهورى رفض طلبهم فلم يجسروا على أخذ الجداوى قهرا من بيت الشيخ.

وكان الشيخ على الصعيدي يمنع شرب الدخان في حضرته. وبحضرة أهل العلم جميعا - تعظيما لهم - وإذا دخل منزل من منازل الأمراء ورأى من يشرب الدخان شنع عليه وكسر آلته ولو كانت بيد كبير الأمراء وشاع عنه ذلك وعرف في جميع الخاص والعام ويروي الجبرتي (أن الأمراء كانوا يتركون الدخان في حضرة الشيخ علي الصعيدي. فكانوا عندما يرونه مقبلا من بعيد نبه بعضهم بعضا فرفعوا شبكاتهم وأقصابهم وأخفوها عنه وإن رأى الشيخ شيئا منها أنكر عليهم ووبخهم وعنفهم وزجرهم حتى إن علي بك الكبير في أيام إمارته كان إذا دخل عليه الشيخ الصعيدي أخبروه قبل وصوله إلى مجلسه فيرفع الشبك من مجلسه ويخفيه من وجهه واتفق أنه دخل عليه مرة فتلقاه على عادته وقبّل يده (الأمير يقبل يد الشيخ) وجلس فسكت الأمير مفكرا في بعض الأمور فظن الشيخ إعراضه عنه فأخذته الحدة وقال مخاطبا باللغة الصعيدية (يا مين - يا مين - يا من هو غضبك ورضاك على حد سواء - بل غضبك خير من رضاك وكرر ذلك وقام قائما وهو (أي الأمير) يأخذ بخاطره ويقول له:

أنا لم أغضب من شيء ويستعطفه فلم يجبه ولم يجلس ثانيا).

وعندما اختلف المغاربة وحكمت المحكمة لصالح الشيخ عباس ضد الخصم الملتجئ إلى الأمير يوسف - كما يحكى الجبرتي - حنق الأمير ونسبهم إلى ارتكاب الباطل وأرسل من طرفه من يقبض على الشيخ عباس من بين المجاورين - فطردوا المجاورين وشتموهم وأخبروا الشيخ أحمد الدردير فكتب برسالة إلى يوسف بك تتضمن عدم تعرضه لأهل العلم ومعاندة الحكم الشرعي وأرسلها صحبة الشيخ عبد الرحمن الفرنوى وآخر فعندما وصلوا وأعطوه التذكرة نهرهم وأمر بالقبض عليهم وسجنهم بالحبس ووصل الخبر إلى الشيخ الدردير وأهل الجامع... فاجتمعوا في صبحها وأبطلوا الدروس والأذان والصلوات وقفلوا أبواب الجامع وجلس المشايخ بالقبلة القديمة وطلع الصغار على المنابر يكثرون الصياح والدعاء على الأمراء وأغلق أهل الأسواق الحوانيت القريبة وبلغ الأمراء ذلك فأرسلوا إلى يوسف بك فأطلق المسجونين وأرسل إبراهيم بك من طرفه إبراهيم أغا فلم يأخذ جوابا وحضر الأغا إلى الغورية ونزل هناك ونادى بالأمان وأمر بفتح الحوانيت فبلغ مجاوري المغاربة ذلك فذهب إليه طائفة منهم وتبعهم بعض العوام وبأيديهم العصي والمساوق وضربوا أتباع الأغا ورجموه بالأحجار فركب عليهم وأشهر فيهم السلاح وبقي الهرج والمرج إلى ثاني يوم فحضر إسماعيل بك والشيخ السادات وعلي أغا كتخدا الجاويشية وحسن أغا أغات المعرفة والترجمان وحسن أفندي كاتب حوالة (يعني كبار الوزراء) وغيرهم فنزلوا الأشرفية وأرسلوا إلى أهل الجامع تذكرة بانفضاض الجمع وتمام المطلوب وكان ذلك عند الغروب فلم يرضوا بمجرد الوعد وطلبوا الجامكية والجراية - فركبوا ورحبوا وأصبح يوم الأربعاء والحال على ما هو عليه وإسماعيل بك فظهر الاهتمام لأهل الأزهر فحضر مع الشيخ السادات وجلسوا بالجامع مع المؤيدى وأرسلوا للمشايخ تذكرة صحبة الشيخ إبراهيم الندوبى ملخصها أن إسماعيل بك تكفل بقضاء أشغال المشايخ وقضاء حوائجهم وقبول فتواهم وصرف جماكيهم وجراياتهم وذلك بضمان الشيخ السادات له - فلما حضر الشيخ إبراهيم بالتذكرة وقرأها الشيخ عبد الرحمن الويشى جهاراً وهو قائم على أقدامه - فلما سمعوها - أكثروا من الهرج واللغط وقالوا: هذا كلام لا أصل له وترددت الإرساليات والذهاب والمجيء بطول النهار ثم

اصطلحوا وفتحوا الجامع آخر النهار - وأرسلوا لهم في يوم الخميس جانبا من دراهم الجامكية ومن جملة ما اشترطوه في الصلح عدم مرور الأغا والوالي والمحتسب من حارة الأزهر وغير ذلك من شروطه.

إذن فقد حكمت المحكمة ضد رغبة الأمير - ثم حاول الأمير تعطيل الحكم فأجبره العلماء على الالتزام به.

لما اشتط أمير الحج في فرض الضرائب أثناء مولد سيدي أحمد البدوي في طنطا ركب الشيخ الدردير بغلته وتوجه إلى خيمة كتخدا الكاشف واستدعاه إليه. فحضر إليه والشيخ على بغلته فكلمه ووبخه وقال له: أنتم ما تخافون الله.

ولما أهين الشيخ الشريف السيد (قاسم بن محمد) التونسي من طرف بعض الأمراء أغربت له العلماء وكادت أن تكون فتنة عظيمة ولكن الله سلم.

لما تدخل الأمراء في تعيين شيخ الأزهر أبطل المشايخ تدبيرهم وثاروا عليهم فلما تدخل إبراهيم بك وعين الشيخ عبد الرحمن بن عمر العريشي الحنفي المذهب - رفض ذلك العلماء - وذهبوا إلى الشيخ محمد الجوهري فساعدهم وركب معهم إلى بيت الشيخ البكري وجمعوا عليهم جملة من علماء الشافعية وكتبوا عرضحالا إلى الأمراء مضمونه أن مشيخة الأزهر من مناصب الشافعية - وأنهم اتفقوا على أن يكون المتعين لذلك الشيخ أحمد الدرش وختم الحاضرون على ذلك العرضحال وأرسلوه إلى إبراهيم بك ومراد بك فتوقفوا وأبوا وقال إبراهيم بك: أي شيء هذا الكلام - أمر فعله الكبار يبطله الصغار ولأي شيء يتقدم الشافعية على الحنفية في المشيخة - الحنفية ليسوا مسلمين...؟ ومذهب النعمان أقدم المذاهب والأمراء حنفية والقاضي حنفي والوزير حنفي والسلطان حنفي وثارت فيهم العصبية وشددوا في عدم النقض - ورجع الجواب للمشايخ بذلك وقاموا على ساق وشدد الشيخ محمد الجوهري الذي لم يقابل حاكما في حياته في ذلك وركبوا بأجمعهم وخرجوا إلى القرافة وجلسوا بجامع الإمام الشافعي وباتوا به وكان ذلك ليلة الجمعة واجتمع الناس للزيارة فهرعت الناس واجتمع الكثير منهم ينظرون ماذا يؤول إليه هذا الأمر؟، وراجع الأمراء مراد بك في أن ذلك يحدث العطب له ولهم أو ثوران فتنة في البلد وحضر إليهم علي أغا كتخدا

الشاويشية وهاجمهم وهاجموه ثم قام وتوجه وحضر مراد بك أيضا للزيارة فكلمه الشيخ محمد وقال: لابد من فروة تلبسها للشيخ العروسي وهو يكون شيخا على الشافعية وذلك شيخا على الحنفية كما أن الشيخ أحمد الدردير شيخ المالكية والبلد بلد الإمام الشافعي وقد جئنا إليه وإن خالفت يخشى عليك فما وسعه إلا أن أحضر فروة وألبسها للشيخ العروسي - وركب المشايخ وبينهم الشيخ العروسي وذهبوا إلى إبراهيم بك ولم يكن الأمراء رأوا الشيخ العروسى ولا عرفوه قبل ذلك فجلسوا مقدار شرب القهوة وخلع العريشي وتثبت العروسي.

إذن فقد رفض المشايخ تدخل السلطة في مشيخة الأزهر - ورغم أن مطلب الأمراء كان وجيها حيث إن من الطبيعي أن تكون مشيخة الأزهر في الحنفية بما أن مذهب الدولة كلها حنفي وبما أن السلطان حنفي والأمراء والجنود حنفية إلا أن الأزهر كان أقوى من هذا كله وفرض إرادته وظل الشافعية في مركزهم بالنسبة إلى المشيخة.

في سنة ١٧٣٥ أصدر السلطان العثماني أوامره بإبطال مرتبات أولاد وعيال ومنها إبطال التوجيهات وأن المال يقبض إلى الديوان ويصرف من الديوان - وأن الدفاتر تبقي في الديوان - ولا تنزل بها الأفندية إلى بيوتهم فلما قرئ ذلك قال القاضي: أمر السلطان لا يخالف ويجب إطاعته فقال الشيخ سليمان المنصوري: يا شيخ الإسلام هذه المرتبات فعل نائب السلطان وفعل النائب كفعل السلطان وهو شيء جرت به العادة في مدة الملوك المتقدمين وتداولته الناس وصار يباع ويشترى ورتبوه على خيرات ومساجد وأسبلة - ولا يجوز إبطال ذلك وإذا بطل بطلت الخيرات وتعطلت الشعائر المرصد لها ذلك فلا يجوز لأحد يؤمن بالله ورسوله أن يبطل ذلك وأن السلطان بإبطاله لا يسلم ويخالف أمره لأن ذلك مخالف للشرع ولا يسلم للإمام في مثل ما يخالف الشرع ولا لنائبه أيضا.... فسكت القاضي فقال الباشا: هذا يحتاج إلى المراجعة.

إذن فقد كان العلماء يملكون نقض أوامر السلطان إذا ما خالفت الشرع ولعل هذا كله يدلنا على مدى نفوذ وتأثير الأزهر - وأن الأزهر كان هو القيادة الاجتماعية للأمة في ذلك الوقت وإليه يلجأ العامة إذا وقع عليهم ظلم - وبقيادة علمائه تتحرك الجماهير لرفع ذلك

الظلم - ولم تكن سلطة العلماء رمزية - بل كان العلماء مع الجماهير يستطيعون دائما تحويل كل مظهر للسخط إلى إضراب واعتصام وتظاهر ومواجهة شاملة تطالب بإصلاحات أوسع من حدود المشكلة المباشرة التي فجرت حادثا ما. وأنهم كانوا يستطيعون مواجهة الأمراء وإجبارهم على التراجع والتسليم، كان الأزهر هو القيادة الحقيقة للأمة وكان يؤدي دور التثقيف والتعليم والوعي ونشر الروح الخلاقة والإيجابية التي حفظت للمجتمع قوته بحيث أصبحت معادلة العلماء كقيادة للجماهير من خلال الأزهر قوة ضخمة تبطل حتى أوامر السلطان والأمراء بل وأحيانا تشترط عدم مرور الوالي أو الأغا من حارة الأزهر، ووصل وعي العلماء والعامة إلى مستوى رفيع بحيث أصبحت الأمة تشارك في كل شيء وتقف ضد كل ما لا يعجبها من قرارات الأمراء أو الوالي أو السلطان متخذة الشريعة مصدراً أعلى ومعتبرة كل سلطة بما فيها سلطة الأمراء والوالي والسلطان مجرد سلطات بشرية تخطئ أو تصيب ووجدنا الشيخ المنصوري يبطل قرار السلطان بدعوى مخالفته للشريعة.

وعلى مستوى القضاء - كان القضاة أساسا من خريجي الأزهر - كما كان القضاة يرجعون إلى فتاوى العلماء للفصل في القضايا - وكانت فتاوى العلماء تقدم كمستندات في الدعوى - كما كان لفتاوى العلماء القدرة على نقض الأحكام بعد صدورها وكان القضاة يستندون في أحكامهم إلى المذاهب الأربعة: الحنفي - الشافعي - الحنبلي - المالكي، كما كانوا أيضا يرجعون إلى أقوال بعض تلاميذ تلك المذاهب كأبي يوسف وغيره، وكل هذا يوضح إلى أي مدى كان يتمتع علماء الأزهر بالنفوذ على مستوى القضاء بل ونقض أحكامه أيضا. وكان للقضاء هيبة كبيرة في ذلك الوقت وكان القاضي يستند إلى العلماء في الحكم على الوالي أو الأمراء أو حتى إبطال قرارات السلطان العثماني إذا كانت مخالفة للشريعة. ويحكى الجبرتي (أن تجار البن قد تحاكموا إلى المحكمة ضد الباشا واستعان التجار بالعلماء للترافع أمام القاضي. وقدموا فتاوى العلماء كما سأل القاضي العلماء فأجابوهم بأنه طالما أن الباشا قد أقام إبراهيم بك قائم عام ووكيلا عنه. فإن توقيع إبراهيم بك على ورقة للتجار يلزم الباشا بتنفيذها؛ لأن الوكيل كالأصيل وبذلك تخلص ذمة التجار وليس للباشا مطالبتهم ومطالبته تكون على وكيله إبراهيم بك فكتب القاضي إعلانًا بذلك وأرسله للباشا.

أي: أن فتاوى العلماء أمام المحكمة كانت هي المرجع الأعلى – أي: في قوة حكم محكمة النقض في عصرنا هذا. وكان القضاة يستندون إلى تلك الفتاوى في الحكم على الباشا والمماليك وعلى السلطان ذاته.

وفي إطار اهتمام الأزهر والأزهريين بالعلوم والفنون فحدِّث ولا حرج فهناك اهتمام مبكر في الأزهر بكل العلوم بما فيها الرياضيات والحساب والفلك والطبيعة والهندسة والفلسفة والمنطق والكيمياء وغيرها. يقول الجبرتي وجلال كشك في كتابه: ودخلت الخيل الأزهر في ترجمته لبعض علماء الأزهر في تلك الفترة (في وفيات ١١٢٢هـ (١٧١٠م): الرجل الفاضل العمدة العلامة رضوان أفندي الفلكي صاحب الزيج الرضواني الذي حرره على طريقة «الدر اليتيم» لابن المجدي على أصول الرصد القديم السمرقندي وصاحب كتاب «أسنى المواهب» وغير ذلك تآليف وحسابيات وتحقيقات لا يمكن حصرها لكثرتها وكتب بخطه ما يزيد على حمل بعير مسودات وجداول حسابيات وغير ذلك وكان يسكن بولاق منقطعا عن خلطة الناس مقبلا على شأنه – وكان في أيامه حسن أفندى الروزناجي وله رغبة ومحبة في الفن فالتمس منه بعض آلات وكرات فأحضر الصناع وسبك عدة كرات من النحاس الأصفر ونقش عليها الكواكب المرصودة وصورها ودوائر العروض والميول وكتب عليها أسماءها بالعربي ثم طلاها بالذهب وصرف عليها أموالا كثيرة وذلك سنة ١١١٢هـ واشتغل عليها الجمابي يوسف مملوك حسن أفندي المذكور وتفرغ لذلك حتى نجب وتمهر وصار من المحققين في الفن واشتهر فضله في حياة شيخه وبعده وألف كتابا عظيما في المنحرفات جمع فيه ما تفرق من تحقيقات المتقدمين وأظهر فيه من مكنون دقائق الأوضاع والرسومات والأشكال من القوة إلى العقل وهو كتاب حافل نادر الوجود وله غير ذلك كثير، ومن تأليف رضوان أفندي المترجم النتيجة الكبرى والصغرى وهما مشهورتان ومتداولتان بأيدي الطلبة في آفاق الأرض – وطراز الورد في رؤية الأهلة والعمل بالقمر وغير ذلك).

وفي سنة ١٧٤٥ مات الإمام العمدة المتقن الشيخ رمضان بن صالح بن عمر الشفطي الخوانكي الفلكي الحيسوبي... حسب المحكمات وقواعد المقومات على أصول الرصد السمرقندي الجديد ومن تصانيفه «نزهة النفس بتقويم الشمس بالمركز والوسط» فقط –

والعلاقة بأقرب طريق وأسهل فأخذوا أحسن وجه مع الدقة والأمن من الخطأ - وحرر طريقة أخرى على طريق «الدر اليتيم» يدخل إليها بفاضل الأيام تحت دقائق الخاصة ويخرج منها المقوم بغاية التدقيق لمرتبة الثوالث في صفحات كبيرة متسعة في قالب الكامل واختصرها الشيخ الوالد في قالب النصف ويحتاج إليها في عمل الكسوفات والخسوفات والأعمال الدقيقة يوما بيوم. ومن تآليفه كتاب «الطالب لعلم الوقت وبغية الراغب في معرفة الدوائر وفضله». و «السمت والكلام المعروف في أعمال الكسوف والخسوف والدرجات» و «بقية الوتر في المباشرة بالقمر» وكتاب عن أبي حنيفة ورسالة عظيمة في حركات الأفلاك السيارة وهيآتها وحركاتها وتركيب جداولها على التاريخ العربي على أصول الرصد الجديد ومطالع البدور في الضرب والقسمة والجذور، وحركة ثلثمائة وستة وثلاثين كوكبا من الكواكب الثابتة المرصودة بالرصد الجديد بالأطوال والأبعاد ومطالع القمر ودرجاته و «القول المحكم في معرفة كسوف النجم الأعظم» - ورشف الزلازل - واستخراج قوسي كلث الهلال بطريقي الحساب والجداول، وأما كتاباته وحسابياته في أصول الظلال واستخراج السموت والدساتير فشيء لا ينحصر ولا يمكن ضبطه لكثرته.

وفي سنة ١١٥٣هـ (١٧٤٠م) مات الأستاذ النجيب الماهر المتقن جمال الدين أبو يوسف - قرأ القرآن وجود الخط وتوجهت همته للعلوم الرياضية كالهيئة والهندسة والحساب والرسم وصار له باع طويل في الحسابيات والرسميات وساعده على إدراك مأموله ثروة مخدومه، فاستيقظ واخترع ما لم يسبق به وألف كتابا حافلا في الظلال ورسم المنحرفات والبسائط والمزاول والأسطحة جمع فيه ما تفرق في غيره من أوضاع المتقدمين بالأشكال الرسمية والبراهين الهندسية والتزم المثال بعد المقال - وألف كتابا أيضا في منازل القمر ومحلها ضواحها وسماها «كنز الدر في أحوال ومنازل القمر» وغير ذلك واجتمع عنده كتب وآلات نفيسة لم تجتمع عند غيره ومنها نسخة «الزيج السمرقندى» بخط العجم وغير ذلك).

ويستمر الجبرتي في الحديث في ترجمة الأعيان عند وفاتهم فيقول: (وفي وفيات ١١٩٢هـ - ١٧٧٨م الوجه المبجل الشيخ عبد السلام مدرس المحمودية - كان إماما فاضلا محققا له معرفة بالأصول وكان يقرأ فيها الورد للملا فرد وتفسير البيضاوي وكان له تعلق بالرياضيات وقرأ

على المرحوم الوالد أشياء من ذلك واقتنى آلات فلكية بينت في تركته).

وفي وفيات ١١٩٤هـ - ١٧٨٠م - يقول الجبرتي: (مات الفقيه العلامة الصالح المعمر عبد الله خزام الفيومي - تولى الإفتاء - وكانت له معرفة تامة في علم المذهب وغيره من الفنون كالفلك والهيئة والميقات وعنده آلات لذلك).

وفي وفيات ١١٩٢هـ - ١٧٧٨م (مات الشيخ العالم المبجل الشافعي الدمنهوري - درس الفقه على أفقه الشافعية في عصره - درس المنهج وشرح ألفية الفراتي - وأخذ عن الزعتري علم الميقات والحساب والجيب والمقنطرات والمنحرفات وبعضا من اللمعة وعلي السحيمي منظومة الوفق المخمس وروضة العلوم وعلى الشيخ الفيومي أشكال التأسيس والجغميني وعلى الشيخ الدمياطي لقطة الجواهر ورسالة قسطا بن لوقا في العمل بالكرة ورسالة بن المشاط في الإسطرلاب).

وفي ترجمة الجبرتي لأبيه: (درس أشكال التأسيس وتحرير أقليدس والمتوسطات والمبادئ والغايات والأكر وعلم الإتماطيقي والجغرافيا وعلم المساحة وكان فريدا في صناعة التراكيب والتقاطير واستخراج المياه - وحضر إليه الطلاب الإفرنج وقرأوا عليه ذلك سنة (١١٥٩هـ - ١٧٤٦م) وذهبوا إلى بلادهم ونشروا بها ذلك العلم ذلك الوقت وأخرجوه من القوة إلى الفعل.

الأزهر يقاوم الاستعمار

نجحت الأمة في مواجهتين كبيرتين مع الاستعمار في أقل من عشر سنوات، المواجهة الأولى مع الحملة الفرنسية (١٧٩٨ - ١٨٠١) والمواجهة الثانية مع حملة فريزر الإنجليزية (١٨٠٧) أي: أن الشعب المسلم في مصر نجح في مواجهة أكبر قوتين استعماريتين في ذلك الوقت فرنسا وإنجلترا بل وفي مواجهة أعظم قواد أوروبا في ذلك الوقت وربما في التاريخ كله (نابليون بونابرت) - ولم يكن النجاح في صد الغزوتين الاستعماريتين بفضل جيوش المماليك أو الأتراك أو جيش محمد على (١٨٠٧) بل إلى المقاومة الشعبية الباسلة التي نظمها وأدارها الأزهر - بفضل تلك العلاقة التاريخية بين علماء الأزهر وبين الجماهير - وبديهى أن الاستعمار عمل فيما بعد لفصم تلك العلاقة وإضعافها ولما نجح في ذلك استطاع أن ينجح في احتلال مصر ١٨٨٢.

إن تتبع يوميات الكفاح ضد الحملة الفرنسية وضد حملة فريزر يعطى أبعادا ودلالات خطيرة على الدور المميز للأزهر في صد العدوان وتنظيم المقاومة ويعطي الدلالة على تلك العلاقة التاريخية بين العلماء والجماهير وهي العلاقة التي تعد الضمان الرئيسي أمس واليوم وغدا لمواجهة التحديات التي تواجه الأمة.

ما إن وطأت قدم نابليون وجيشه الجرار أرض مدينة الإسكندرية الباسلة حتى هبت الجماهير بقيادة العلماء الأزهريين وخاصة صغار العلماء لمكافحة ذلك الغزو الاستعماري - كان جيش بونابرت حوالي ٥٠ ألف وكان تسليحهم قويًا ومتنوعا - وكان عدد كل سكان الإسكندرية وقتها حوالى ١٠ آلاف نسمة ومع عدم تكافؤ القوى قاومت المدينة الباسلة التي لم تكن تملك إلا مدفعا واحدا وبرميلا واحدا من البارود وعشرين فارسا ولكنها كانت تملك جماهيرا مسلمة وعلماء مجاهدين - قاومت الأمة من بيت إلى بيت ومن حارة إلى حارة ومن شارع إلى شارع - قاوم الرجال والنساء والأطفال بالبنادق والعصي والأحجار - وكانت المقاومة من الشدة بمكان لدرجة أن بونابرت ذاته تعرض للقتل عندما أصابته رصاصة في حذائه أطلقت من أحد البيوت التي كان يقاوم من خلفه رجل وامرأة، وأصيب كل من

الجنرال كليبر والجنرال مينو وهما من كبار قواد الحملة. ويصف بونابرت المقاومة بقوله: « إن كل بيت كان قلعة »[١] ويقول هيرولد[٢] « إنه من النادر أن يصاب قائدان هذه الإصابات في الدقائق الخمس الأولى لأية حملة حربية ». ويصف الجنرال مينو المقاومة بقوله « إن الأعداء دافعوا عن المدينة بشجاعة كبيرة وثبات عظيم ».

وقدر نابليون خسائر الجيش الفرنسي في مهاجمة الإسكندرية في رسالته إلى حكومة الديركتوار في فرنسا بحوالى ثلاثمائة بين قتيل وجريح واستمرت المدينة تقاوم رغم سقوطها. فأخفى الأهالي الجمال حتى لا يستفيد بها الفرنسيون في حمل عتادهم وعندما توجه الفرنسيون إلى دمنهور وجدوا مقاومة في كل مكان. قاومهم العرب وقاومهم الفلاحون - وقاومهم العمال واختفت القرب التي تحمل الماء - وفي القاهرة تجمع الأهالي لمقاومة الحملة وبرغم هزيمة المماليك في موقعة إمبابة فإن المقاومة استمرت في القاهرة والأقاليم - في الوجه البحرى والقبلي في كل قرية ومدينة - قاوم الفلاحون بالعصي والأحجار وقاوم البحارة والمراكبية بإخفاء المراكب حتى لا يستفيد بها الفرنسيون وكذلك بمهاجمة القوافل البحرية الفرنسية وأينما سار الفرنسيون وجدوا مقاومة هائلة ومقاطعة شاملة - كانت القرى تمتنع عن دفع الضرائب للفرنسيين وكانت تمنع عنهم المؤن والماء والجمال - بل إن بعض القرى كانت تحرق الزرع والضرع إذا ما جاء الفرنسيون حتى لا يجدوا شيئا يستفيدون به. وفي نفس الوقت كان الأهالى في الأقاليم يرسلون المؤن والسلاح والرجال إلى الثوار في القاهرة. وكان الأزهر هو محور هذه العملية - كان يشكل تنظيماً ضخماً يتكون من صغار العلماء المنبثين في كل قرية ومدينة ويقودون عمليات المقاومة والتحريض والتنظيم وتنسيق المواقف بين القاهرة والأقاليم وفي هذا الصدد يقول الجنرال ديموى في تقريره: (لقد داخلني الشك من الاتفاق بين هجوم هذا الجمع علينا ومغادرتنا للإسكندرية وخُيِّل إليَّ أن هناك اتصالا بينهم وبين أهالي الإسكندرية ولقد حرمنا الأهالي من الجمال والماء وكان من المستحيل علينا أن نحصل على

---

(١) بونابرت عن ٤٢٩ casrespondance xxix

(٢) كريستوفر هيرولد - بونابرت في مصر.

جمل واحد أو قربة ماء واحدة).

أي: الأزهر نجح في عمل شبكة اتصالات سريعة بين صغار العلماء ونجحت تلك الشبكة في تنظيم المقاومة والمقاطعة وتنسيق المواقف.

وفي القاهرة اندلعت ثورتان كبيرتان ففي ٢١ أكتوبر ١٧٩٨ اندلعت ثورة القاهرة الأولى. وقام العلماء بإلقاء الخطب الحماسية وإلهاب الثورة - كما شارك أهالي الأقاليم في الثورة وتوجهوا إلى القاهرة في الوقت المحدد. بما يعني أن الثورة لم تكن عفوية بل ثورة مخططة يشرف عليها ويديرها علماء الأزهر.

ويصف الجنرال ديترو ذلك بقوله: (كان المعسكر العام (مركز القيادة) للثوار في الجامع الكبير المسمى بالأزهر - وقد أقام الثائرون المتاريس على منافذ الشوارع المفضية إليه فأصبح من المستحيل أن تقتحمه المدفعية أو الجنود أو المشاة).

وعرف الفرنسيون أن مركز القيادة في الأزهر فأمر بونابرت بتوجيه القذائف إليه. يقول ريبو: (أخذت آلاف القنابل تنهال على الأزهر وتترامى في الأحياء المجاورة له. وفي الوقت نفسه أقبلت كتائب الجنود فاحتلت الشوارع الموصلة إلى الأزهر بحيث أصبح الثوار محصورين بين نارين: نار المدافع من فوقهم، ونار الجنود من حولهم وأحدثت المدافع تخريبا شديدا في الجامع الأزهر والبيوت القائمة في الأحياء المجاورة له - فأصبح منظر هذه الأشياء فظيعا).

ثورة القاهرة الأولى إذن كانت من الدقة والترتيب والاتساع والتنسيق بحيث أنه يصبح من البديهيات أنه كانت هناك قيادة تحركها ولجانا ثورية في كل موقع ولعل ما يأتي يدل على ذلك دلالة قاطعة.

عندما زار نابليون الشيخ السادات - وكانت زيارة مفاجئة - سأل بونابرت عن منشور معادٍ شاعت أخباره إذن فقد كان هناك إعداد وتخطيط للثورة.

في يوميات الكولونيل ديترو ٢١ أكتوبر ١٧٩٨: (الساعة السادسة صباحا احتشدت الجماهير في عدة أحياء في القاهرة. وصاح المؤذنون على مآذنهم ينادون نداءات مثيرة للخواطر وظهر الناس مسلحين بالبنادق والعصى).

إذن فهناك اتفاق مسبق - بدليل التواجد لإعلان الثورة والتجمع منذ الصباح الباكر

وبدليل الدعوة إلى الثورة من المآذن في كل مكان من القاهرة أو بدليل ظهور الثوار في عدة أحياء في وقت واحد.

اتخذ الثوار - الجامع الأزهر - مقرا لقيادتهم وقد اهتم الثوار بتحصين المواقع المؤدية إلى الجامع قبل بدء الثورة - وحسب كلام ديتروا: (إن الثوار أقاموا المتاريس على منافذ الشوارع المفضية إلى الجامع فأصبح من الصعب أن تقتحمه المدفعية أو المشاة) ولعل اهتمام الثوار بتحصين مقر القيادة يؤكد أن الثورة مخططة.

ومما يؤكد أن الثورة كان لها قيادة موحدة أن نابليون ذاته عرف أن مقر القيادة ورجال القيادة موجودون في الأزهر فأصدر أوامره بضرورة اقتحام الجامع الأزهر بأي ثمن بل وأمر جنوده بقتل كل من في المسجد وباستمرار احتلاله بالجنود.

أي: الهدف إنهاء الثورة بضرب قياداتها ومركز قيادتها.

يقول ريبو واصفا ما حل بالأزهر: (إنه لم يبق حجر على حجر في حارة الأزهر).

إن الفلاحين كانوا يقبلون إلى القاهرة وكذلك أهل الضواحي - يحملون المؤن والسلاح وذلك للمشاركة في الثورة - إذن فتنظيم الثورة كان يربط بين القاهرة والأقاليم. وقد فطن نابليون إلى ذلك فأمر بقطع الطريق بين القاهرة والأقاليم.

كان الثوار يعرفون مصدر الخطر على الثورة، مما يدل على أنه كان هناك استطلاع وكان هناك قيادة تحلل وتفكر - فقد أوفد الثوار (٨٠٠٠) ثائر كما قدرهم نابليون في مذكراته - خرجوا من باب الفتوح يريدون الهجوم على المرتفعات التي ثبت فيها الفرنسيون مدافعهم (كانت المدافع قد ركبت على سطح المقطم وكانت تلك المدافع هي مصدر الخطر الأكبر على الثوار، كما أن الثوار حاولوا إبطال المدافع أيضا بالصعود على جامع السلطان حسن ومناراته لضرب القلعة ومن فيها من الجنود الفرنسيين. وكل هذا يعني أنه كانت هناك غرفة عمليات للثورة داخل الأزهر.

نجح الثوار في السيطرة على مداخل القاهرة وأبوابها وهو عمل يدل على الوعي الحربي لقيادة الثورة وكان الثوار يسمحون للأهالي القادمين من الريف والضواحي بالدخول والمشاركة في الثورة.

رفض الثوار وساطة أعضاء الديوان كما لم يسمحوا لهم حتى بتجاوز المتاريس المؤدية إلى الأزهر – وذلك لمنع البلبلة والتردد أو المناقشة حول استمرار أو إيقاف الثورة – وهذا يدل على وعي قيادة الثورة – لأن الثورة تموت إذا تفاوضت ومجرد قبول التفاوض أو الوساطة ينهي أي ثورة وهذه حقيقة معروفة – لأن سلاح أي ثورة هو التجمع الجماهيري وهو التجمع الذي ينفض إذا ما ركن قواد الثورة إلى التفاوض.

قبيل ثورة القاهرة الأولى شهدت كل الأقاليم حالة من الثورة والمقاومة ويقول الرافعي تعليقا على ذلك: (فالثورة التي شبت في القاهرة كان لها صدى في سائر البلاد والمقدمات التي سبقت تلك الثورة والحالة الفكرية التي كانت عليها القاهرة من أواخر سبتمبر وأكتوبر عمت الأقاليم حتى اعتقد الفرنسيون أن هناك تدبيرا سابقا لقيام ثورة عامة في كل أنحاء القطر)[١].

إذا كانت كل الوقائع السابقة تقطع بوجود تنظيم يدير الثورة. وأن القيادة كان في الجامع الأزهر فإن كل المؤرخين تقريبا اتفقوا على ذلك.

يقول الرافعي: (كان للثورة لجنة تديرها وتنشر دعوتها وتنظم صفوفها ومقرها في الأزهر)[٢].

ويقول ريبو: (كان في الجامع الكبير المعروف بالأزهر لجنة لتدبير الثورة)[٣].

ويقول الجبرتي: (احتشدت الجماهير في الطرقات ووافقهم على ذلك المتعممين)[٤].

ويقول نابليون في مذكراته: (إن الشعب انتخب ديوانا للثورة ونظم المتطوعين للقتال واستخرج الأسلحة المخبوءة وأن الشيخ السادات انتخب رئيسا لهذا الديوان – وأن لجنة الثورة كانت تنعقد في الأزهر).

ويقول هيرولد: (إن الفرنسيين غفلوا تماما عما كان يبيت لهم فالأمر لم يكن مصادفة ولا

---

(١) عبد الرحمن الرافعي – تاريخ الحركة القومية – دار المعارف.

(٢) الرافعي – مصدر سابق.

(٣) ريبو – نقلا من الرافعي – مرجع سابق.

(٤) الجبرتي – عجائب الآثار.

انفجارا عفويا بل أمر مبيت)[1] .

وخلاصة الأمر: أن علماء الأزهر قد قادوا ثورة مليونية تضم كل فئات الشعب من عمال وفلاحين وصناع وتجار وأصحاب صناعات وغيرهم وكان طبيعيا أن يأمر نابليون جنوده بالهجوم على مقر الثورة وعصب المقاومة (الأزهر) يقول الجبرتى: (دخلوا الجامع وهم راكبون الخيول وبينهم المشاة كالوعول وتفرقوا بصحنه ومقصورته وربطوا خيولهم بقبلته وعاثوا بالأروقة والحارات وكسروا القناديل والسهارات وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين والمكتبة ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأواني والقصاع والودائع والمخبآت بالدواليب والخزانات - ودشتوا الكتب والمصاحف وعلى الأرض طرحوها وبأرجلهم ونعالهم داسوها وأحدثوا فيها وتغوطوا وبالوا وتمخطوا وشربوا الشراب وكسروا أوانيه وألقوها بصحنه ونواحيه وكل من صادفوه به عروه ومن ثيابه أخرجوه).

كانت الحملة الفرنسية وهي الطليعة الأولى للاستعمار الغربي تدرك أن الأزهر لم يكن القيادة المباشرة لثورة القاهرة الأولى بل كان قيادة للأمة كلها تاريخيا ومستقبليا ولذلك كان الحقد عليه والتركيز على سحقه مسجدا وجامعة ومجاورين ومشايخ... ونفوذ - كان الأزهر يمثل مركز القيادة وزعامة الأمة - ورمز عزتها وسيادتها لم يكن مجرد مسجد أو جامعة ولكنه كان رمزا للحضارة أراد الاستعمار الغربي أن يجتث جذورها من نفوسنا وهكذا كان نابليون ممثل الاستعمار الأول يريد أن يقول: لتنتهِ حضارتكم، كان يريد أن يسحق الأزهر وعلماءه - كسر حاجز الشموخ والاستعلاء في وجدان الأمة - ولا شك أن نابليون لو استطاع أن يهدم الأزهر لفعل ففي تعليماته إلى الجنرال برن بتاريخ ٢٣ أكتوبر ١٧٩٨: (يهدم الجامع الأكبر ليلا إذا أمكن).

كان للثورة قيادة عليا هي الشيخ السادات وديوان للثورة مكونا من ثلاثين رجلا اجتمعوا قبل الثورة ونظموا أعمالها واتخذوا من الأزهر مقرا لهم. وامتد هذا التنظيم إلى كل مكان في القاهرة وفي خارج القاهرة يقول الجبرتي: (كما قبض على سليمان الشواربي شيخ ناحية

---

(١) كريستوفر هيرولد - مرجع سابق.

سرياقوس وعثر معه على رسالة من لجنة الثورة تأمره بإنهاض أهل تلك النواحى والحضور إلى القاهرة للمشاركة في الثورة).

واعتمدت قيادة الثورة على العلماء الصغار والمؤذنين لإعلان تفجير الثورة يقول نقولا الترك: (وفي ذات نهار الأحد في ٢٠ ربيع آخر نزل أحد المشايخ الصغار. وبدأ ينادي في الناس أن كل مؤمن موحد بالله عليه بجامع الأزهر؛ لأن اليوم ينبغي لنا أن نغازي في الكفار وكان أغلب أهل المدينة معهم الأس (كلمة السر - أو الشفرة) بذلك أما الفرنساوية فكانوا متغفلين عن ذلك).

وإذا تتبعنا الجزاءات الرادعة التي نفذها الفرنسيون في قيادة الثورة وعناصرها. فإن ذلك يعطينا أكثر من ضوء على طبيعة تنظيم الثورة وعلى قياداتها. فقد أمر نابليون بقتل كل من حمل السلاح في وجه الاحتلال لأن الاستعمار يدرك أن من حمل السلاح في وجه الاحتلال أصبح يمتلك نفسية المنتصر وأصبح يعرف كم كان جنود الاحتلال جبناء كعادتهم دائما وهي أمور أخطر من أن تترك. كما نفذ حكم الإعدام أيضا في ٨٠ شخصا من صغار المشايخ بتهمة أنهم كانوا ديوان الثورة - وتم تشكيل محكمة لمحاكمة قيادة الثورة وهم كل من الشيخ إسماعيل البراوي - الشيخ يوسف المصيلحي - الشيخ عبد الوهاب الشبراوي - الشيخ سليمان الجوسقي (شيخ طائفة المكفوفين) - الشيخ أحمد الشرقاوي وهم على حد قول الرافعى من أواسط علماء الأزهر - وقد تم القبض عليهم من منازلهم بعد إخماد الثورة وتم إعدامهم.

وفي مذكرات بونابرت أن الشيخ السادات كان زعيم الثورة وقال في تلك المذكرات: (إنه مع قيام البينات على أنه زعيم الثورة فقد تركه بونابرت لأن الضرر من قتله كبير لما كان له من المنزلة في نفوس الناس ولأن قتله يجعله شهيدا في نظر الشعب.

وكل هذا يؤكد أنه كان هناك تنظيم للثورة يعمل منذ اليوم الأول لدخول الفرنسيين - اندلعت ثورة القاهرة الأولى بعد أقل من ثلاثة أشهر من دخول الفرنسيين وكان ذلك التنظيم ذا قيادة عليا (السادات على الأرجح) ثم هناك هيئة عليا للثورة ستة من العلماء الذين حوكموا وأعدموا ثم هناك لجنة مركزية (تتكون من (٨٠) من صغار العلماء تسمى ديوان

الثورة) وأن الأزهر كان مركزا للقيادة - وكانت هناك لجان اتصال بين القاهرة والأقاليم - وهناك لجان استطلاع - لجان للدعاية والتحريض - لجان للتسليح - وقد استطاع هذا التنظيم أن يخفي وجوده عن أعين جواسيس الفرنسيين رغم ضخامة التنظيم ونفوذه واتساعه.

ولكي نعرف نوعية قيادة الثورة - فإننا سنتتبع سيرة العلماء الستة الذين أعدموا بتهمة زعامة الثورة في أوراق الجبرتي وفي كتاب محمد جلال كشك بعنوان « ودخلت الخيل الأزهر ».

فالشيخ (العلامة الفاضل الفقيه الشيخ أحمد بن إبراهيم الشرقاوي الشافعي الأزهري - كان يأتيه الناس من بلادهم بقضاياهم وخصوماتهم وأنكحتهم فيقضي بينهم ويكتب لهم الفتاوى في الدعاوى التي يحتاجون فيها المرافعة عند القاضي - وربما زجر المعاند منهم وضربه وشتمه ويستمعون لقوله ويتمثلون لأحكامه وكان جسيما عظيم اللحية فصيح اللسان ولم يزل على حالته حتى اتهم في فتنة الفرنسيس ومات مع من قتل بيد الفرنساوية بالقلعة ولم يعرف له قبر).

أما الشيخ الإمام العمدة الفقيه الصالح القانع الشيخ عبد الوهاب الشبراوي الشافعي الأزهري فكان حسن الإلقاء سلس التقدير جيد الحافظة جميل السيرة .... حتى اتهم في إثارة الفتنة وقتل بالقلعة شهيدا بين الفرنسيس وأنه كان يقرأ كتب الحديث كالبخاري ومسلم ويحضر دروسه الجم الغفير من العامة).

والشيخ يوسف المصيلحي كان يتولى التدريس بجامع الكردي وأنه كان مهذب النفس لطيف الذات حلو الناطقة مقبول الطلعة خفيف الروح. والشيخ سليمان الجوسقي (كان شيخ طائفة العميان - تولى هذه المشيخة بعد وفاة الشيخ الشبراوي شيخها السابق - وسار فيهم بشهامة وصراحة وصار من أعيان الصدور المشار إليهم في المجالس تُخشى سطوته وتسمع كلمته ويقال قال الشيخ كذا أو أمر بكذا).

والشيخ إسماعيل البراوي ابن أخي الشيخ عيسى البراوي الشهير الذكر تصدر بعد وفاة والده مكانه تغلب عليه النباهة واللسانة والسلاطة والتدخل وذلك هو الذي أوقعه في حبائل

الفرنسيين.

إذن فقد كانت قيادة الثورة عبارة عن علماء الإسلام الذين يتصفون بالجماهيرية والنفوذ لدى العامة وبالتالي كانوا قادرين على تحريك تلك الجماهير أو الاستجابة لها - ولم تكن قيادة الثورة مجرد شخصيات جماهيرية فقط بل كانت تتمتع بكل صفات الزعامة الحقة من ذكاء وصرامة وشهامة وجبروت وخفة روح وجمال السيرة وطهارة النفس والاستقامة وغزارة العلم والنباهة والقدرة على الخطابة وسلامة العبارة وسلاسة التقرير.

واستمر علماء الأزهر ينظمون حركات المقاومة في كل مكان من مصر في القاهرة والأقاليم. في المدن والأرياف في النيل وعلى الأرض وبرز العديد من الزعماء في الأقاليم مثل الشيخ حسن طوبار الكبير الذي نظم عمليات المقاومة في المنصورة ودمياط وقاد العمليات الفدائية للصيادين وكان هو شيخ طائفة الصيادين. كما برز الشيخ علي العدوي في الصعيد وبرز محمد المهدي في دمنهور وكان البعض يعتبرونه المهدي المنتظر وكان أتباعه يقاتلون بشراسة وهو مغربي الأصل. ونجح الأزهر في حشد كل طوائف الأمة في حالة مقاومة مستمرة حتى طائفة العميان وحتى المغاربة وغيرهم من المسلمين غير المصريين شاركوا بضراوة في عمليات المقاومة وذلك بفضل الوحدة الدينية التي تجمع هؤلاء.

وفي ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠ شبت أكبر وأهم ثورة شعبية في تاريخ مصر المعاصر بدأت في حي بولاق ثم اندلعت في كل مكان من القاهرة لدرجة أن الجبرتي يقول: (شارك فيها كل أهل مصر ما عدا الضعيف الذي لا قوة للحرب بل ونجح الثوار في عمل معامل للبارود والمدافع في وقت المعركة وهو أمر بالغ الدلالة يقول المسيو مارتان أحد مهندسي الحملة في كتابه (تاريخ الحملة الفرنسية في مصر) وكان شاهد عيان تلك الثورة: (لقد قام سكان القاهرة بما لم يستطع أحد أن يقوم به من قبل فقد صنعوا البارود وصنعوا القنابل من حديد المساجد وأدوات الصناع وفعلوا ما يصعب تصديقه ومن رأى كمن سمع ذلك أنهم صنعوا المدافع) وتعاون أهل القاهرة مع باقي الأقاليم في إمداد الثورة بالمؤونة والذخيرة وقام الأهالي بمحاكمة الخونة والجواسيس المتعاونين مع الحملة الفرنسية سواء منهم من كان مسلما أو قبطيا. وكان يقود تلك الثورة كل من السيد عمر مكرم - السيد أحمد المحروقي كبير التجار -

والشيخ الجوهري (أحد علماء الأزهر). وكان السيد عمر مكرم أزهريا أيضا إلا أنه مارس الحياة العامة ولم ينقطع للتدريس في الأزهر. واستمرت الثورة مشتعلة حتى ١٨ أبريل سنة ١٨٠٠ لا ينقطع القتال فيها ليلا ونهارا بين الثوار والجنود الفرنسيين.

وبديهى أن هذه الثورة الشاملة التي اندلعت في الأقاليم - الوجه البحري والقبلي- والقاهرة. والتي استمرت حوالي شهرًا كاملاً. والتي احتشد لها كل سكان مصر. وتم فيها صناعة القنابل والمدافع - بل وإعادة تصنيع القذائف الفرنسية ورميها عليهم ثانية - كل هذا يؤكد أن الثورة كانت مخططة وكانت تدار من الأزهر - لدرجة أن كليبر أمر بإغلاق الأزهر ولم يسمح بفتحه بعد ذلك للصلاة أبدا إلا بعد توقيع معاهدة الرحيل من مصر.

وفي يوم السبت ٢١ من المحرم سنة ١٢١٥هـ قام سليمان الحلبي باغتيال الجنرال كليبر قائد الحملة في ذلك الوقت وذلك في مقر قيادته بالأزبكية وسليمان الحلبي - ٢٤ سنة - أزهري. كان يدرس بالأزهر قبل مجيء الحملة الفرنسية. فلما علم بتلك الحملة قرر السفر إلى القاهرة مرة أخرى وانضم إلى تنظيم الثورة. وبما أنه مسلم جاء ليشارك في قتال الكفار - وتكونت خلية أزهرية من الشوام الدارسين في الأزهر تضم كلاً من سليمان الحلبى - عبد القادر الغزي (من غزة) - محمد الغزي (غزة) - أحمد الوالي (عكا) - وقام هؤلاء بعمليات الاستطلاع والرصد ثم نفذ سليمان الحلبي عمليته الجريئة في ٢١ من محرم ١٢١٥هـ وقد أُعدم المجاهدون الأربعة بعد تعذيبهم لإكراههم على الاعتراف وقد صمد هؤلاء المجاهدون أمام التعذيب ولم يعترفوا إلا في أضيق الحدود وقرروا أنهم فعلوا ذلك للمغازاة في سبيل الله (الجهاد في سبيل الله) ويرى الباحث جلال كشك في كتابه الهام «ودخلت الخيل الأزهر»: أن تنظيم الثورة عندما قرر اغتيال كليبر أسند هذه المهمة إلى سليمان الحلبي لأنه كان قادما حديثا من حلب وأنه لم يكن قد شارك في ثورة القاهرة الثانية وبالتالي لم يتعرض للمراقبة ولا للمداهمة ولم يكن معروفا لعملاء كليبر من أمثال يعقوب، وبرطمين، وشكر الله، وأضرابهم، وكل هذا بالإضافة إلى حماسته الزائدة ونيته الخالصة في المغازاة في سبيل الله يجعله أفضل المرشحين لأداء تلك المهمة بنجاح.

اندحرت الحملة الفرنسية ورحلت عن مصر ١٨٠١ - ثم جاءت الغزوة الاستعمارية

الثانية وكانت هذه المرة إنجليزية. ففي سنة ١٨٠٧ جاءت حملة فريزر الإنجليزية بهدف احتلال مصر ودخلوا الإسكندرية في ١٦ مارس ١٨٠٧ وتباطأ محمد على في مواجهتهم وتذرع بوجوده في الوجه القبلي لمواجهة المماليك ومطاردتهم. ووقع العبء الرئيسي في المقاومة على الحركة الشعبية الباسلة بقيادة السيد عمر مكرم وعلماء الأزهر وجماهير الشعب المصرى في كل مكان وخاصة في رشيد والحماد. ففي رشيد وقف الأهالي بقيادة العلماء موقفا بطوليا ونجحوا في صد الحملة وقتلوا جملة كبيرة من الإنجليز وكذلك في الحماد. وفي القاهرة قرر العلماء تعطيل الدراسة في الأزهر وقام مجاورو الأزهر جميعا بحمل السلاح وفي ذلك يقول الجبرتى: (تقرر على جميع الناس حمل السلاح والتأهب للجهاد في المماليك حتى مجاورى الأزهر تركوا الدروس وكذلك المدرسين تركوا إلقاء الدروس وحملوا السلاح).

وقال الجبرتي في موضع آخر: (وفي يوم الأربعاء حصلت جمعية ببيت القاضي وحضر حسن باشا وعمر بك والسيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوي والشيخ الأمير وباقي المشايخ فتكلموا في شأن حادثة الإنجليز والاستعداد لحربهم وقتلهم وطردهم فإنهم أعداء الدين والملة).

ولم يقتصر الأمر على الاستعداد في القاهرة بل إن السيد حسن كريت نقيب أشراف رشيد (الأشراف هم سلالة بيت النبوة) رسالة إلى السيد عمر مكرم نقيب أشراف مصر يستنجده ويطلب إليه إمداد المدينة بالرجال والعتاد فقرأ السيد عمر مكرم الرسالة على الناس وحضهم على التطوع لنجدة رشيد فاستجابوا وتطوعوا وحملوا السلاح وأزمعوا السفر لنجدة إخوانهم وتطوع كذلك أهالي البحيرة والبلاد المجاورة لرشيد وأقبلوا عليها يدافعون عنها.

وانتهت المسألة باندحار الإنجليز ورحيلهم نهائيا عن مصر بفضل جهود عمر مكرم الأزهري ونقيب الأشراف وبفضل حسن كريت نقيب أشراف رشيد وبفضل جهود العلماء والجماهير أولا وأخيرا.

إذن فقد نجحت الأمة في صد غزوتين استعماريتين كبيرتين في أقل من عشر سنوات ويرجع ذلك إلى الدور المتميز الذي قام به علماء الأزهر وإلي تلك العلاقة التاريخية الفذة بين الجماهير والعلماء.

الأزهر يواجه الاستبداد

لم يقتصر دور الأزهر في تلك الفترة على مواجهة الغزو الأجنبي بل تعداه إلى رفض كافة أشكال الظلم والاستبداد من قبل الحكام بل وإلي فرض إرادته في تولية حاكم وخلع آخر.

ففي ١٤ من محرم ١٢١٨هـ ٦ مايو ١٨٠٣م اجتمع العلماء في بيت القاضى وقرروا تولية طاهر باشا واليا على مصر بدلا من خسرو باشا وأرسلوا للدولة العثمانية بذلك. وهذا يدل على مدى ما بلغته قوة الأزهر في ذلك الوقت.

وفي ٧ يوليو ١٨٠٣ بعد مقتل طاهر باشا اجتمع العلماء والقاضي وعينوا إبراهيم بك قائمقام. وهكذا فإن العلماء يقررون ثانية مركز السيادة في مصر.

وفي ٧ مارس ١٨٠٤ قاد العلماء ثورة على ظلم المماليك ونادت المظاهرات ضد البرديسي وانتهت الانتفاضة بجلاء المماليك عن القاهرة ولم يعودوا بعدها إلى القاهرة وأخذ شأنهم في الاضمحلال.

وفي أواخر مايو سنة ١٨٠٤ فُرضت ضرائب على أرباب الحرف والصناعات فثار الناس وأغلقوا الحوانيت - وذهبوا إلى الأزهر وصعدوا إلى مناراته يدعون ويصرخون وأرسل خورشيد باشا إلى السيد عمر مكرم يطلب تهدئة الحال وقال رسول الباشا: إنه تقرر رفع الضريبة عن الفقراء، فقال السيد عمر مكرم: إن الحرفيين أيضا فقراء بعدما قاسوه من القحط والكساد وفساد الأحوال. ومر والي القاهرة بالمدينة يطلب فتح الدكاكين فلم يستجب له أحد. فاضطر الباشا أن يذعن إلى مطالب الشعب والعلماء وألغي الضريبة بعد يومين ونادي المنادي بذلك.

وفي ١٢ من صفر ١٢٢٠هـ - ١٢ مايو ١٨٠٥م - حضر الأهالي يشكون للعلماء والمشايخ أفعال الجنود فكلموا الباشا فأمرهم بالكف وترك المنازل لأربابها فلم يمتثلوا فكرر المشايخ عليه الموضوع فقال: هم خارجون بعد ثلاثة أيام - فأضرب العلماء عن إعطاء الدروس وأغلقت الحوانيت وزاد الضجيج في الشوارع وازدادت حركة الناس واجتمع المشايخ ونقيب الأشراف وذهبوا إلى بيت القاضي وطلبوا حضور رجال الدولة إلى مجلس

الشرع وحددوا شكواهم في اعتداء العسكر على الناس وإيذائهم وإخراجهم من بيوتهم وازدياد الضرائب ومصادرة الأموال وغيرها من الأسباب. وطلب الباشا من المشايخ والقاضي حضورهم عنده فرفضوا وفي اليوم التالي قرر العلماء عزل خورشيد وتعيين محمد علي واليا على مصر على شروط معينة فقبل محمد على ذلك وكان من ضمن الشروط ألا يقرر ضريبة إلا بالرجوع إلى المشايخ - وقام الشيخ الشرقاوي والسيد عمر مكرم بإلباس محمد علي كركا وقفطانا ونادى المنادي في المدينة بعزل أحمد باشا خورشيد وتولية محمد علي - ورفض خورشيد ذلك بدعوى أنه عين بقرار سلطاني فلا يصح أن يعزله المشايخ والفلاحون على حد قوله وتحصن في القلعة - فنادى العلماء بالجهاد وحمل السلاح والاستعداد والسهر ليلا وإقامة التحصينات وحاصروا القلعة - وقام خورشيد باشا وأطلق المدافع على الأزهر - إلا أن الشعب بقيادة العلماء ازداد إصرارا وأمكن للثوار نقل مدفع إلى أعلى الجبل وأخذوا يطلقون منه القنابل على القلعة وأرسل خورشيد باشا رسولا ليتفاوض مع السيد عمر مكرم والمشايخ وقال هذا الرسول (عمر بك الأرناؤوطي) : كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم وقد قال الله تعالى: ﴿ **أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ** ﴾ ؟ (النساء: ٥٩) فأجابه السيد عمر مكرم: أولو الأمر هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل وهذا رجل ظالم (يقصد خورشيد باشا) وجرت العادة والشرع أن أهل البلد يعزلون الولاة حتى الخليفة والسلطان إذا سار فيهم بالجور فإنهم يعزلونه. واستمر الأمر على هذا الحال ما يقرب من شهرين من محاصرة القلعة وتبادل النيران بين الطرفين حتى تم النصر للشعب والعلماء وجاء رسول من السلطان بفرمان يقضي بتعيين محمد علي واليا على مصر ابتداء من ١٨ مايو ١٨٠٥م وعزل خورشيد باشا. واجتمع العلماء في الأزهر وقرروا فتح الجامع ومعاودة الدروس. وفي يونيه ١٨٠٦م قرر السلطان عزل محمد علي إلا أن العلماء تمسكوا به ورفعوا إلى السلطان رسالة بذلك تقول: إن الشرع مقام في أيامه وأن البلاد في عهده في راحة وأمان. ووافق السلطان على استمرار محمد علي حاكما على مصر تحت ضغط العلماء.

وهكذا وصل الأزهر والمشايخ والعلماء مع الحركة الشعبية إلى قمة النفوذ حيث أصبحت كلمتهم نافذة تماما في خلع وتولية من يشاؤون من الولاة بل ويقوم العلماء بإلباس الوالي خلعة الولاية ويشترطون عليه.

تراجع نفوذ الأزهر واستمرار كفاحه

كان الأزهر قد وصل إلى قمة نفوذه في ١٨٠٧م بعد أن نجح في تنظيم المقاومة الشعبية ضد غزوتين استعماريتين. وبعد أن نجح في فرض إرادته على الحكام بل وعلى السلطان ذاته في خلع أو اختيار الولاة.

وفكر محمد علي الذي وصل إلى السلطة بنفوذ العلماء في التخلص من الزعامة الشعبية والعلماء ليخلص له حكم البلاد، واستغل محمد علي ظهور الخلاف والنزاع بين علماء الأزهر على نظارة الأوقاف وبدأ يعد العدة للقضاء على الحركة الشعبية.

وفي ١٨٠٨ بينما الشيوخ حاضرون في الأزهر كعادتهم وكان ذلك يوم السبت ٣٠ يونيو ١٨٠٩. أقبل الناس أفواجا يصرخون ويستغيثون من الضرائب الجديدة التي فرضها محمد علي ومن ظلم جنوده الذين اعتقلوا أحد المجاورين بالأزهر وأودعوه القلعة - وجاء السيد عمر مكرم واتفق العلماء على الدفاع عن مصالح الجمهور وفي اليوم التالي تعاهد العلماء على الاتحاد وترك المنافرة وقدموا عريضة احتجاج على تصرفات الباشا (محمد علي) وأوفد محمد علي سكرتيره ديوان أفندي لمقابلة الشيوخ وتعرف كلمتهم فوجد منهم في اليوم الأول اتحادا في الرأي وأصروا على عدم مقابلته والاكتفاء بالعرض الذي قدموه وفي ذلك معنى الغضب والاحتجاج الذي يخشى محمد علي عواقبه في نفوس الجمهور وأدرك محمد على ما تنطوي عليه تلك المقاطعة من المعاني وما يترتب عليها من النتائج. فبادر بالإفراج عن الطالب المعتقل ثم أخذ يدبر خططه للوقيعة بين العلماء. واستطاع أن يستدرج إليه بالرشوة شيخان هما الشيخ محمد المهدى والشيخ محمد الدواخلي. اللذان أصبحا يدافعان عن محمد علي في مجلس العلماء وشقا عصا الوحدة بين المشايخ وواجههم عمر مكرم بما تم الاتفاق عليه بعدم الذهاب إلى محمد علي وأصر على رأيه وعاود كلا من المهدى والدواخلي الطلب إلى عمر مكرم للذهاب إلى محمد علي ولكنه أصر على الرفض. واستطاع محمد علي أن يضم إليه أيضا الشيخ الشرقاوي وهكذا تم عزل عمر مكرم وحده وانتهى الأمر بنفي السيد عمر مكرم إلى دمياط في يوم الأحد الأول من رجب ١٢٢٤هـ (١٨٠٩م).

وفي الواقع فإن هذا لم يكن مجرد انتصار لمحمد علي على الحركة الشعبية بقيادة السيد عمر مكرم ولكنه كان بداية لتقلص نفوذ الأزهر في الشارع المصري ولدى الجماهير. ذلك أن محمد علي لم ينفِ عمر مكرم إلى دمياط بقرار منه ولكنه استخدم الدسائس والرشاوى ليحصل على قرار بذلك من العلماء أي: أن محمد على أفسد ذمة العلماء وبالتالي لم تعد الجماهير تثق فيهم. وهذا من شأنه ليس القضاء على عمر مكرم فحسب بل على هيبة الأزهر كلها أي: أن النتيجة الحتمية لتلك المؤامرة أن تقلص نفوذ الأزهر على الجماهير واحتقار الجماهير لهؤلاء العلماء الذين تآمروا ضد السيد عمر مكرم.

وبالطبع لم يخل الأزهر من العلماء الشرفاء الذين تورعوا عن المشاركة في المؤامرة مثل الشيخ أحمد البحطيطي وكثير من العلماء الذين امتنعوا عن التوقيع على منشور يشنع على السيد عمر مكرم ويشكك في ذمته. وقد تعرض هؤلاء العلماء بقيادة الشيخ أحمد البحطيطي مفتي الحنفية لكثير من المضايقات بسبب امتناعهم عن التوقيع على ذلك المنشور وفقدوا مناصبهم ولكنهم صمدوا.

لم يكتف محمد علي بما أحدثه من شق جبهة العلماء وتشويه سمعتهم لدى الجماهير، وطرد العلماء الشرفاء من مناصبهم بل إنه قام بمصادرة جميع الأوقاف الموقوفة على الأزهر والعلم وحوّل أئمة المساجد إلى موظفين تابعين له مما أدى عمليا إلى تقلص نفوذ الأزهر، فإذا أضفنا إلي ذلك أن محمد علي احتكر الصناعة والزراعة والتجارة أي: أنه قضى على الطوائف. التي كانت تشكل عصب الحياة الاجتماعية والجماهيرية وكانت بتحالفاتها مع العلماء تشكل حاجزا قويا ضد استبداد الحكام أو الغزو الأجنبي.

بدأ اهتمام محمد علي بإرسال البعثات التعليمية إلى أوروبا وإنشاء المدارس الحديثة في مصر الابتدائية والعالية على السواء وذلك لتلبية حاجات مشروعه الطموح. كما اهتم الخديوي إسماعيل أيضا بالتعليم فأنشأ المدارس في مصر وأرسل البعثات إلى أوزوبا. وكان للأزهريين دور في بناء نهضة التعليم تلك. فقد كانوا هم نواة البعثات التعليمية إلى أوروبا وكان يختار من بينهم تلاميذ المدارس الحربية وكان منهم رواد الحركة التعليمية على مستوى المدارس ونظارتها والتدريس فيها ولا شك أن العلم فريضة إسلامية ولم يكن حماس

الأزهريين لإنشاء المدارس ناشئا من فراغ بل إن مبادئ الإسلام تحتم طلب العلم ولو في الصين.

وبنشأة المدارس التعليمية خارج الأزهر أصبح في مصر نمطين من التعليم هما التعليم الأزهرى والتعليم الحديث، وإذا كان التعليم الحديث يعطى مميزات وإغراءات مادية ووظيفية أكبر من التعليم الأزهري فإن معظم التلاميذ اتجهوا إلى التعليم الحديث، وقد يقول قائل: إن الأزهر كان منارة العلوم الحديثة والعلوم التجريبية والرياضية والطبيعية والطب وغيرها وأنه كان من المفروض أن تنشأ تلك المدارس في كنف الأزهر للمحافظة على كيانه ونفوذه وهو رأي جدير بالاحترام إلا أننا ننحاز إلى نشر التعليم بأي وسيلة من الوسائل فالتعليم كله خير سواء داخل الأزهر أو خارجه. إننا نؤمن أن تقلص دور الأزهر لم يكن بسبب إنشاء المدارس الحديثة بل إن إنشاء المدارس وازدياد رقعة التعليم كان سيزيد من قيمة الأزهر والحركة الجماهيرية عموما ودور العلماء المتميز في زيادة كفاح الأمة، ولكن ضرب علماء الأزهر والتشنيع عليهم وتقليص نفوذهم في عهد محمد علي ومصادرة أوقاف الأزهر كان هو السبب في تقلص دور الأزهر.

لم يكن الأزهر يوما معاديا للعلوم الدنيوية، وإذا كان الطب والطبيعة والفلك والكيمياء قد درست داخله فإنه حتى بعد ظهور المدارس الحديثة وجدنا من علماء الأزهر من يأخذ ويدعو إلى العلوم الحديثة والدنيوية فالشيخ محمد الأنبابي شيخ الأزهر أفتى سنة ١٣٠٥هـ - ١٨٨٧م : (يجوز تعلم العلوم الرياضية مثل الحساب والهندسة والجغرافية - بل يجب الأخذ بها وجوبا كفائيا كما يجب تعلم علم الطب كما أفاد الغزالي في مواضع من الإحياء - وأن ما زاد على الواجب في تلك العلوم مما يحصل به زيادة في القدر الواجب فتعلمه فضيلة - وأما الطبيعيات وهي الباحثة عن صفات الأجسام وكيفية استحالتها وتغيرها كما في الإحياء من كتاب العلم فإن لها أهمية بحسب أهمية ثمرتها كالوقوف على خواص المعدن والنبات المحصل للتمكن من علم الطب وكمعرفة الآلات النافعة في مصلحة العباد).

ولم تقتصر تلك الفتوى على وجوب تعلم تلك العلوم - بل تصدت لرفض الخرافات : (ولا يدخل في علم الهيئة الباحث عن أشكال الأفلاك والكواكب ومسيرها علم التنجيم

المسمى بعلم أحكام النجوم - وهو الباحث عن الاستدلال بالتشكيلات الفلكية على الحوادث السفلية فإنه حرام).

وكان الأزهر هو الوعاء الذي حفظ علوم اللغة العربية - وآدابها - بل وقدم للحياة الاجتماعية زادًا لا ينقطع من المنشدين بل والمغنيين وغيرهم كما كان جامعة لكل تلاميذ العالم الإسلامى - مما حقق وحدة ثقافية وفكرية في أرجاء العالم الإسلامى.

الأزهر والثورة العرابية

وإذا كان الأزهر قد أصبح مؤسسة ثقافية راسخة - فكان من الطبيعي أن يشارك مع الطوائف الاجتماعية المختلفة في نضالها ضد الاستبداد والتدخل الأجنبي وفي ساعة الجد تظهر قيمة الأزهر ويظهر معدنه وصحيح أن زعماء الأمة أصبحوا من خارج الأزهر ولكن توجهاتهم الإسلامية السليمة جعلتهم يخرجون من نفس المشكاة التي يخرج منها علماء الأزهر بل إن معظمهم كان يوما ما من تلاميذ الأزهر. وأحمد عرابي الزعيم الإسلامي كان أزهريا في الأصل وكذلك كان خطيب الثورة وضميرها عبد الله النديم الذي تعلم في مسجد إبراهيم بالإسكندرية وكان هذا المسجد تابعا في تعليمه ودروسه للأزهر وشارك عدد كبير من علماء الأزهر وشيوخه في تلك الثورة وقد شهدت المحاكمات والجزاءات التي تمت بعد فشل الحركة عددا كبيرا من هؤلاء الأزهريين مثل الشيخ محمد عبد الله عليش شيخ المالكية وهو أحد الذين وقعوا على الفتوى بعزل توفيق، فقد أخذ مريضا من داره ونقل إلى المستشفي وتوفي بها. وأشيع أنه وضع له السم في الدواء. ولم تسمح الحكومة لأهله بتشييع جنازته من داره ولم تكتف بموته بل نفت إلى الشام أكبر أبنائه وهو الشيخ عبد الرحمن محمد عليش ومنهم الشيخ حسن العدوى وهو أيضا أحد الموقعين على الفتوى بعزل الخديوي والذي نادى من فوق منبر الأزهر بإهدار دم توفيق - وله موقف مشرف في محاكمته فقد قال في جرأة: إنهم إذا جاؤوه الآن بفتوى أن توفيقا مستحق للعزل فإنه يوقعها وما في وسعكم وأنتم مسلمون أن تنكروا أن الخديوي توفيق مستحق للعزل لأنه خرج على الدين والوطن.

وممن نفوا إلى الشام الشيخ محمد عبد الجواد القاياتي وأخوه الشيخ أحمد.

والثورة العرابية بما أنها مظهر من مظاهر الوعي الإسلامي والثوري كانت إحدى ثمار الغرس الذي زرعه الثائر المسلم جمال الدين الأفغاني الذي جاء إلى مصر ١٨٧١ وبث فيها روح العزة والشموخ والتمسك بالإسلام والدعوة إلى ارتقاء أحوال المسلمين ومقاومة المستبدين والظالمين والتدخل الأجنبي وأصدر العديد من الصحف أو شارك في تحريرها أو ساعد على قيام البعض بإصدارها وظل بمصر ينفخ فيها من روحه المباركة حتى تم نفيه عنها

سنة ١٨٧٩ على يد الخديوي توفيق. وكل قيادات الثورة العرابية بلا استثناء كانوا من تلاميذ جمال الدين الأفغاني.

وبعد الثورة العرابية انتقلت راية الكفاح إلى عبد الله النديم ثم مصطفى كامل ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش وهم جميعا قد خرجوا من المشكاة الإسلامية برغم عدم تخرجهم في الأزهر وكانوا يدعون إلى الجامعة الإسلامية ومقاومة الإنجليز المحتلين وهو عين الأمر الذي دعا إليه علماء الأزهر وبدأت ظهور الجامعات بدعوة مصطفى كامل لإنشاء الجامعة المصرية وظلت راية الكفاح في الجامعة والشعب والأزهر ولم ينقطع الأزهر عن مواصلة دوره التاريخي.

بعد نشأة الحرب العالمية الأولى أعلنت بريطانيا الحماية على مصر وسلختها عن الدولة العثمانية التي هزمت في تلك الحرب. وخلعت الخديوي عباس وأحلت محله الخديوي حسين تحت اسم السلطان حسين. وقد رفض المصريون ذلك فامتنع طلبة الحقوق عن الذهاب إلى كليتهم لاستقباله في اليوم الذي حدد لزيارته ١٨ فبراير ١٩١٥ كما أطلق شاب يدعى محمد خليل النار على السلطان حسين وذلك عند مرور موكبه بشارع عابدين في ٨ أبريل ١٩١٥. وبعدها بشهرين وقع اعتداء جديد على السلطان حسين حين ألقيت قنبلة من نوافذ أحد المنازل في شارع رأس التين على موكبه وهو في طريقه لصلاة الجمعة - كما وقع اعتداء على وزير الأوقاف فطعن بسكين في محطة القاهرة في ٥ ديسمبر ١٩١٥.

وانتشر السخط على السلطان الذي يستمد سلطته من الإنجليز وليس من الخلافة العثمانية برغم أن الخلافة كانت تعاني من آخر مراحل اضمحلالها وبدأت المنشورات تجد طريقها إلى داخل قصر عابدين ذاته ومنها أن بعض قبائل العربان قد رفضوا أن يقسموا يمين الطاعة للإنجليز - وأن الضباط والجنود المصريين في الإسماعيلية رفضوا إطلاق النار على إخوانهم الأتراك واحتجبت صحيفة الشعب عن الظهور احتجاجا على إعلان الحماية ورفض أمين الرافعي إصدارها حين طلب منه السلطان حسين ذلك.

وشارك الأزهر في كل هذا وذكاه وأشعل فتيله - فقد قام جماعة من علماء الأزهر بحركة ضد الاحتلال لتأييد عباس في أول الحرب العالمية الأولى وهتف بعض طلبة الأزهر للخديوي

عباس (المخلوع) حين شاهدوا أخاه محمد علي يؤدي صلاة الجمعة في مسجد الأزهر وانطلقت من الأزهر الجماعات السرية التي تقاوم الإنجليز.

ويمكننا أن نرصد في تلك الفترة حركة الشيخ محمود خطاب السبكي - الذي دعا إلى محاربة البدع والخرافات التي لحقت بالمسلمين - كما دعا إلى الخلافة الإسلامية واتصل بالموالين للخلافة وحارب الاستعمار الإنجليزي بلا هوادة حتى أنه اعتقل على يد السلطات البريطانية ١٩١٨ - وشارك المنتمون إلى الجمعية الشرعية التي أسسها الشيخ محمود خطاب السبكي في ثورة ١٩١٩ - وإضرابات عمال العنابر - كما شاركوا في المنظمات السرية المسلحة التي قامت باغتيال السردار لي ستاك. وأظهر الشيخ محمود خطاب السبكي اهتماما مبكرا بالقضية الفلسطينية وخطر اليهود عليها واهتم بدعم حركة المقاومة الإسلامية المسلحة ضد اليهود في فلسطين في ذلك الوقت. كما دعا الشيخ محمود خطاب السبكي إلى مقاطعة البضائع الإنجليزية وقام بتأسيس شركات وطنية لصناعة النسيج وهو أمر يدل على وعي مبكر بالبعد الاقتصادي والاحتكاري للاستعمار.

في مواجهة التبشير

وفي مواجهة إرساليات التبشير الأجنبية في مصر - والتي تعد إحدى ركائز الاستعمار والتي نالت عطف وتشجيع ودعم الخديوي سعيد والخديوي إسماعيل، قام عدد من العلماء بمقاومة هذه الإرساليات وخاصة جمال الدين الأفغاني - عبد الله النديم اللذين فضحا مخططات التبشير في مصر عن طريق الصحافة والخطابة وغيرهما من الوسائل - كما شكل عدد من العلماء جمعية خيرية هي (الجمعية الخيرية الإسلامية) ومن هؤلاء العلماء الشيخ محيي الدين النبهان - الشيخ علي ضيف وغيرهم. وكان من بين أهداف تلك الجمعية فتح مدارس إسلامية للبنين والبنات لجميع أبناء المصريين بالمجان للفقراء وبمصروفات قليلة للقادرين وذلك لمواجهة النشاط التعليمي للإرساليات الأجنبية.

ودعوة المسلمين إلى الاجتماع على هيئة ندوات أسبوعية ليتباحثوا في العلوم الدينية وليتزودوا بما يبعث الغيرة والحمية الإسلامية ضد النشاط التبشيري في البلاد وفي سنة ١٨٩٩ اتفق الشيخ (عبد الوهاب النجار) مع الشيخ (محمد زكي الهندي) على إنشاء جمعية (مكارم الأخلاق الإسلامية) بقصد مقاومة التبشير. وكان الشيخ النجار يقوم بنشاط بارز ضد التبشير فكان يذهب إلى هؤلاء المبشرين في مقرهم ويحاجهم ويفحمهم مما أغضب عليه المستشار الإنجليزي وصدر قرار بإبعاده إلى أسوان في محاولة لوأد نشاطه ضد التبشير.

وفي سنة ١٩٠٠م أنشأ الشيخ منصور الشريف في حلوان جميعة (التعاون الإسلامي) لمحاربة نشاط الإرساليات التبشيرية في منطقة حلوان كما لعب عدد من العلماء مثل الشيخ محمد رشيد رضا - عبد العزيز جاويش دورا هاما في فضح مخططات التبشير.

ويمكننا أن ندرك أهمية الأزهر كحاجز ضد التبشير من كلمات أحد المبشرين في مؤتمر التبشير سنة ١٩٠٦م الذي عقد بالقاهرة حيث قال: (إن للجامع الأزهر نفوذًا وإقبالاً من جانب الشبان المسلمين في كل أقطار العالم، وإن المسلمين رسخ في أذهانهم أن تعليم العربية في الأزهر متقن ومتين أكثر منه في غيره وأن خريجي الأزهر معروفون بسعة الاطلاع على علوم الدين والدنيا علاوة على أن الأزهر مفتوح للتعليم لكل المسلمين تساعده على ذلك

الأوقاف الكثيرة وأن الأزهر بإمكانه الإنفاق على ٢٥٠ أستاذ - وأن الأزهر يتهدد الكنيسة المسيحية بالخطر وأنه لابد من إنشاء مدرسة جامعة نصرانية تقوم الكنيسة بنفقاتها وتكون مشتركة بين كل الكنائس المسيحية في الدنيا على اختلاف مذاهبها لتتمكن من مزاحمة الأزهر).

ويمكننا أن ندرك شدة حقد المبشرين على الأزهر باعتباره قلعة الدين واللغة إذا ما عرفنا أن المبشر (زويمر) كبير المبشرين الأمريكيين في مصر وسوريا وفلسطين والمسئول عن تحرير (مجلة العالم الإسلامي) لسان حال الإرساليات الدولية - وكان معروفًا بأنه متعصب ضد الإسلام والمسلمين - ففي سنة ١٩٢٦ حاول هذا المبشر اقتحام الأزهر ثم عاود الكرة سنة ١٩٢٨ وكان بصحبته هذه المرة ثلاثة مبشرين من بينهم امرأة. ودخلوا جميعا حلقة درس (الشيخ سرور الزنكلوني) أثناء شرحه لسورة (براءة) وقام زويمر ومن معه بتوزيع ثلاث رسائل تبشيرية ثم تركوا الحلقة لغيرها ليوزعوا بقية الرسائل التي كانت بحوزتهم - وأثار هذا العمل الخطير في ساحات الأزهر - ردود فعل هامة على مستوى الطلاب والعلماء. وقام وفد من العلماء بمكالمة رئيس الوزراء المصري وقتها (مصطفى النحاس) طالبين إليه التصدي لأعمال التبشير ووقفها نهائيا. واكتفت الحكومة المصرية بالتنبيه على زويمر بعدم دخول المساجد.

وفي سنة ١٩٣٣ تأسست جمعية مصرية لمقاومة التبشير برئاسة الشيخ مصطفى المراغي - كما قام الشيخ (الأحمدي الظواهري) شيخ الأزهر بتأليف لجنة لمقاومة التبشير وعقد الظواهري مؤتمرا كبيرا في القاهرة حضره العلماء الرسميون وجمعوا أموالا طائلة لمقاومة التبشير.

وهكذا ظهرت جمعيتان إحداهما رسمية برئاسة الظواهري - وأخرى شعبية برئاسة المراغي - ونشطت الجمعية الشعبية أكثر في محاربة المبشرين ودحض حججهم وإصدار المنشورات التي تفضح أعمالهم وحث المسلمين على مقاومة المنصرين وتنويرهم بأساليب المنصرين الرخيصة كما قامت ببناء دور الأيتام والملاجئ والمدارس لقطع الطريق على وسائل بعثات التبشير.

الأزهر يواجه عمليات التغريب

لم يقتصر دور الأزهر على محاربة إرساليات التبشير الأجنبية بل تعداها لمواجهة كل ما هو خطر على الإسلام. وكان الاستعمار قد حاول أن يزرع في البيئة المحلية أفكاره وفلسفاته وطرائقه السياسية والاجتماعية ليفقد البلاد هويتها ويسهل عليه بالتالي السيطرة عليها. وقد ظهرت مدارس فكرية تنادي بتلك الأفكار وتبشر بها وتروج لها واتخذت تلك المدارس الفكرية شكل مؤسسات حزبية وصحفية وفكرية.

كانت الخلافة العثمانية قد انتهت رسميا سنة ١٩٢٤، ولكنها كانت قد انتهت قبلها بمدة طويلة عمليا – وإذا كانت وحدة المسلمين فريضة إسلامية فإن الأزهر حاول أن يحافظ على الوحدة الإسلامية بصرف النظر عن كونها في الخلافة العثمانية أو في غيرها وهكذا جاء دفاع الأزهر عن الخلافة حارا وقويا وكان الاستعمار وعملاؤه يروجون أفكار منحرفة عن عدم وجوب الخلافة إسلاميا.

وكان العالم الإسلامي وقتها في حيرة واضطراب، فلم يعرفوا كيف يصنعون وقد أصبح العالم الإسلامي للمرة الأولى منذ وفاة الرسول ﷺ بلا خلافة وكانت أول خطوة أخرجت الناس عما هم فيه من حيرة وارتباك بيان موقع من ١٦ عالما من علماء الأزهر أذاعوه بعد إلغاء الخلافة بأربعة أيام يقررون بطلان ما فعله الكماليون من إلغاء الخلافة وينبه المسلمين إلى حاجتهم إلى الخلافة ثم يدعوهم إلى عقد مؤتمر يقرر ما يراه في أمر الخلافة من الطريق الشرعي ويحذرهم من تسرب الخلاف الذي يؤخر الإسلام ويوهنه).

ولا شك أن هذا الموقف من علماء الأزهر كان موقفا عظيما فبرغم كل أخطاء الخليفة فإن الدفاع هنا لم يكن عن الخليفة ولكن عن فكرة الخلافة ذاتها.

وفي اليوم التالي أي: ٧ مارس ١٩٢٤ سقطت الخلافة ٢ مارس ١٩٢٤ وظهر بيان العلماء ٦ مارس ١٩٢٤ نشر الشيخ محمد حسنين وكيل الأزهر مقالا بيَّن فيه ضرورة الخلافة شرعيا وعمليا وأورد حديث رسول الله ﷺ الذي ورد في صحيح مسلم « من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية » وألمح إلى إمكانية بعث الخلافة من مصر على أساس أن بها

علماء الدين وطلاب العلم. وأهل الحل والعقد وذوي المشورة والرأي ما لا يجتمع في غيرها وفيها الأزهر الشريف الذي امتازت به مصر عن سائر الأقطار ولمصر في نفوس العالم الإسلامي منزلة تستحق معها السبق إلى هذا الواجب الأكيد.

ومنذ ذلك الوقت كثرت الدعوات لعقد مؤتمرات الخلافة وبرز اسم الأزهر كمصدر لهذه الدعوات ومركزا من أهم مراكز النشاط الإسلامي الذي يحاول معالجة هذه المشكلة.

وفي ١٩ من شعبان ١٣٤٢ الموافق ٢٥ مارس ١٩٢٤ اجتمع العلماء برئاسة شيخ الجامع الأزهر وقرروا الدعوة إلى عقد مؤتمر في القاهرة برئاسة شيخ الإسلام - للبت فيمن يجب أن تسند إليه الخلافة الإسلامية وحددوا شهر شعبان من العام التالي موعدا لانعقاده وأخذت لجنة المؤتمر شكلا رسميا فانتشرت فروعها في البلاد - وحررت مجلة باسم المؤتمر الإسلامي ظهر العدد الأول منها في شهر ربيع الأول ١٣٤٣هـ أكتوبر ١٩٢٤م ونشر في صدره مقالاً للسيد محمد رشيد رضا أبرز فيه أهمية هذا المؤتمر لأنه أول مؤتمر إسلامي عام يشترك فيه علماء الدين والدنيا من كل الأمم الإسلامية وبيَّن أن المطلوب في هذا المؤتمر هو وضع قواعد للحكومة الإسلامية المدنية التي يظهر فيها علو التشريع الإسلامي ووضع قواعد للتربية والتعليم تجمع بين هداية الدين ومصالح الدنيا واختيار خليفة وإمام للمسلمين).

ولكن هذا المؤتمر الذي حدد لانعقاده شهر شعبان ١٣٤٣ (مارس ١٩٢٥) أُجِّل مرة بعد مرة ولم يجتمع إلا في أول ذي القعدة ١٣٤٤هـ (١٣ مايو ١٩٢٦) ولم يسفر عن شيء بسبب الخلاف بين حكام المسلمين الذين حاول كل منهم الدعوة لنفسه كخليفة للمسلمين. ولم يكن من الطبيعي برغم مجهودات الأزهر أن ينجح المؤتمر لأن الملك فؤاد حاول الاستحواذ على هذا المؤتمر ليدعو له كخليفة للمسلمين. ولم يكن الملك فؤاد سليل أسرة محمد علي الذي دق المسمار الأول في نعش الخلافة بحروبه المدمرة معها وسليل الخديوي توفيق الذي باع البلاد إلى الإنجليز لم يكن الملك فؤاد صالحا وهو من هو ليكون خليفة للمسلمين ففشل المؤتمر.

وبعد سقوط الخلافة - جاء الدور على عملاء الاستعمار لكي يكملوا حلقات المؤامرة فظهرت كتب وأفكار تشكك في فكرة الخلافة ذاتها مثل كتاب الإسلام وأصول الحكم لـ - علي عبد الرازق - وفي الوقت نفسه وعلى الجانب الآخر ظهر أبناء الأمة وعلماؤها

الشرفاء ليدافعوا عن فكرة الخلافة مثل كتاب الخلافة أو الإمامة العظمى لمحمد رشيد رضا. وقد نشر هذا الكتاب على ستة حلقات في مجلة المنار وقد بين هذا الكتاب أهمية الخلافة وأنها حجر الزاوية في انتظام شئون المسلمين وقيام شريعتهم وسلامة دينهم وتماسك بنيانهم واجتماع كلمتهم فيها إلى ما ينطوي عليه شرع الله تعالى من أسرار وحكم وإلي فضله على كل ما يبتدعه العقل الإنساني من قوانين وإلي كيد الدول الأوروبية للشريعة الإسلامية محذرا المسلمين منها كاشفا الستر عن بعض حيلها وأساليبها وقد انقسم هذا الكتاب إلى قسمين: قسم نظري: يعالج المشكلة من ناحيتها الفقهية القانونية، وقسم سياسي: يعالج المسألة على ضوء واقع العالم الإسلامي.

إذن فقد قام علي عبد الرازق - مدفوعا من الاستعمار - بالتشكيك في فكرة الخلافة ذاتها عن طريق كتابه «الإسلام وأصول الحكم» - وهو كتاب يعتمد على أقوال المستشرقين ويبث فيه أفكارًا حول أن الإسلام دين وليس دولة وأن الخلافة ليست من أصول الإسلام.

وقد قام علماء الأزهر بطرد المرتد علي عبد الرازق من زمرة العلماء في ١٢ أغسطس ١٩٢٤م. وأصدر علماء الأزهر عريضة للطعن فيما جاء بالكتاب وألف الشيخ محمد الخضر حسين كتابا للرد على هذا الكتاب المنحرف.

كما شارك علماء الأزهر بحماس في الرد على الدعوات الهدامة التي راجت في تلك الفترة والتي قصد بها عملاء الاستعمار هدم الدين. أو هدم الخلق أو هدم اللغة. فظهرت دعوات تدعو إلى إنكار الغيب والتشكيك في الله سبحانه وتعالى، وكانت مجلات الهلال والأهرام وغيرها تعج بمثل هذه المقالات الصريحة في الدعوة إلى الإلحاد. كما قام طه حسين بالتشكيك في الحقائق الدينية التاريخية واعتبارها أساطير وذلك في كتابه «على هامش السيرة» وكتاب «في الشعر الجاهلي» وقد قام الأزهريون بالرد على تلك الأباطيل مثل كتاب «تحت راية القرآن» لمصطفى صادق الرافعي - و «نقد كتاب الشعر الجاهلي» لمحمد فريد وجدي و«نقض كتاب في الشعر الجاهلي» لمحمد الخضر حسين - و«النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي» لمحمد أحمد الغمراوي — و «الشهاب الراصد» لمحمد لطفي جمعة، ومحاضرات في بيان الأخطاء العلمية التاريخية التي اشتمل عليها كتاب في الشعر الجاهلي للشيخ محمد الخضري وكذلك

كتاب «نقض مطاعن في القرآن الكريم» لمحمد أحمد عرفة.

وقد ثار الأزهر على هذا الكتاب المنحرف لطه حسين وأرسلت معاهده المختلفة برقيات للحكومة يطالبون بطرد طه حسين من الجامعة.

وإذا كان ما سبق هو نماذج للدعوات الهدامة التي تقصد هدم أصل التدين برفض الإيمان بالغيب ووضع الكتب السماوية موضع النقد والمناقشة فإن هناك وسائلا أخرى اتبعها العملاء لتوهين أثر الإسلام في النفوس واتخذت وسائلا خفية وليست أثوابا مختلفة، فمن هذه الدعوات ما كان يحاول إظهار الشريعة الإسلامية بمظهر الشريعة البدائية - ومنها ما كان يزعم أن الشرائع قد جاءت بأصول عامة وتركت لكل زمان ولكل بيئة أن تطبقها بما يناسبها ومنها ما كان يتصيد مواطن الشبه والغموض في الشريعة الإسلامية وفي حياة الرسول ﷺ وظهرت أسماء: عزيز سيدهم، وسلامة موسى، وطه حسين الذي دعا في النهاية إلى قطع صلات مصر العربية والإسلامية والتوجه إلى أوروبا في كتابه «مستقبل الثقافة في مصر» وقد تصدى علماء الأزهر لكل هذه الدعوات الهدامة وخاصة مصطفى صادق الرافعي والشيخ طنطاوي جوهري والشيخ مصطفى صبري. كما تصدى العلماء الأزهريون لموجات الانحلال الأخلاقي والدعوة إلى التحلل من القيم الأخلاقية والأخذ بالتقاليد الغربية وغيرها.

الأزهر يشارك فى الكفاح ضد الاستعمار الإنجليزي

لم ينقطع كفاح الأزهر يوما ضد الاستعمار منذ الحملة الفرنسية ومرورا بحملة فريزر ثم في تعضيد الأزهر للثورة العرابية ومشاركة رجاله بحماس فيها. وعندما بدأت راية الكفاح الإسلامي في مصر ضد الاستعمار تنتقل إلى أيدي خريجي المدارس الحديثة مثل مصطفى كامل، ومحمد فريد لم يجد علماء الأزهر غضاضة في المشاركة في الكفاح تحت قيادة هؤلاء الزعماء ما دامت أهدافهم ووسائلهم إسلامية وانخرط علماء وطلاب الأزهر في الحزب الوطني بقيادة مصطفى كامل وأسهموا في نشاطه مع غيرهم من المصريين في الكفاح ضد المحتل الغاصب – واستخدم علماء الأزهر نفوذهم وعلومهم الشرعية في مواجهة مدارس الفكر الاستعماري – وفضح علماء الأزهر مقولات الاستعماريين ونجح العلماء في تعبئة الشعور الإسلامي في كل مدن مصر وقراها ضد الاستعمار. وساهم هؤلاء العلماء في فضح مطامع الإنجليز للمصريين إبان الحرب العالمية الأولى وإذكاء روح الجهاد ضد الاحتلال في نفوس المصريين وربطه بمجمل الكفاح الإسلامي في بلدان أخرى ضد الاستعمار وكان لذلك كله أثره في اندلاع ثورة ١٩١٩ واتساع مداها ليشمل مدن وقرى مصر كلها – وكان الأزهر هو ملاذ الثورة ومن أروقته وساحته تندلع المظاهرات وتصدر البيانات والمنشورات ومن على منبره تلقى الخطب الحماسية التي تلهب كيان الجماهير وقام علماء الأزهر بدورهم التاريخي في كل مدينة وقرية فقادوا الكفاح الشعبي ضد الاستعمار وظهر العديد من العلماء الأفذاذ أمثال الشيخ مصطفى القاياني – وبرغم كل هذا سرق العلمانيون نتائج الثورة بل وأفسدوا أعمال الثورة ورضوا بالتفاوض مع الإنجليز الذين شجعوا الاتجاه العلماني وقبلوا التفاوض معه والوصول إلى صيغ ملائمة للحكم عن طريق هؤلاء العلمانيين أمثال سعد زغلول الذين توجهوا بالكفاح الشعبي وجهة غير صحيحة وأضاعوا التراث الكفاحي الإسلامي للجماهير، وكان من الطبيعي والحالة هذه أن تظهر منظمات سياسية علنية وسرية تخوض الكفاح من خلال المنظور الإسلامي وكان علماء الأزهر وطلبته مددا لهذه المنظمات والجماعات. فعندما ظهرت جماعة الإخوان المسلمين سنة ١٩٢٩ انضم إليها العديد من الأزهريين – وشاركت

تلك الجماعة في الكفاح الوطني وخاصة من خلال الطلاب والعمال والفلاحين - كما شاركت جامعة الأزهر في ذلك الكفاح سواء عن طريق تلك الجماعات أو عن طريق مشاركتها كجامعة في مجمل الكفاح الوطني الذي خاضه الطلاب المصريون في الثلاثينيات والأربعينيات وبداية الخمسينيات بل إن علماء الأزهر من أئمة المساجد قادوا الحركات الفلاحية ضد كبار الملاك في الريف المصرى وخاصة في قرى كفور نجم وبهوت وميت فضالة وكانت الاحتجاجات تبدأ في المسجد ويدعمها إمام المسجد ويقوم الفلاحون من خلال المسجد بالتظاهر أو التمرد أو الامتناع عن العمل في حقول كبار الملاك وخاصة في ١٩٥١.

ويمكننا تتبع الآثار الفكرية والسياسية لعلماء الأزهر من خلال أثر العلماء الذين انخرطوا في جماعة الإخوان المسلمين وخاصة الشيخ محمد الغزالي الذي ندد دائما بالاستبداد السياسي والظلم الاقتصادي والاجتماعي والتخلف القبلي من خلال مقالاته وكتبه الهامة والخطيرة والتي صدرت في نهاية الأربعينيات. مثل الإسلام وأوضاعنا الاقتصادية - الإسلام وأوضاعنا السياسية - كفاح دين وغيرها — وما زال الشيخ محمد الغزالي يقوم بدوره الهام في التصدي لكافة أشكال الظلم والاستبداد التي تقع على المسلمين بل والتصدي للجمود في داخل الحركة الإسلامية ذاتها والتركيز على الجوانب الإيجابية للمسلمين ومحاربة السلبية والخمول والانعزال في مجتمعات المسلمين أو الفهم المتزمت لنصوص الإسلام.

الأزهر بعد ١٩٥٢م

عندما قررت حكومة الثورة تأميم شركة قناة السويس قام الرئيس عبد الناصر بإعلان ذلك من فوق منبر الجامع الأزهر في إشارة واضحة إلى إمكانية إعلان الجهاد لدى الشعب المصري بل وشعوب العالم الإسلامي من خلال الأزهر. ولم يكن عبد الناصر ليختار منبر الأزهر لإعلان ذلك الأمر لو لم يكن يدرك المخاطر التي سوف تنتج عن هذا القرار وبالتالي فلا مندوحة من الاستفادة بنفوذ الأزهر داخليا وخارجيا.

وفي سنة ١٩٦١ تم صدور قانون بتطوير الأزهر وجعل هذا القانون شيخ الأزهر هو الإمام الأكبر كما تم عمل وزارة لشئون الأزهر وأنشأ للأزهر خمس هيئات هي المجلس الأعلى للأزهر، مجمع البحوث الإسلامية بإدارة الثقافة والبعوث الإسلامية، جامعة الأزهر، المعاهد الأزهرية، وهناك إدارات متفرعة عن الأزهر مثل إدارة الدعوة والإرشاد، إدارة البحوث والنشر، إدارة الثقافة والبعوث الإسلامية.

كما تم إدخال عدد كبير من الدراسات والكليات إلى جامعة الأزهر فبعد أن كانت الكليات في الأزهر قبل ١٩٦١ ثلاثة هي كلية الشريعة والقانون - كلية اللغة العربية - كلية أصول الدين. أصبحت الآن بالإضافة إلى تلك الكليات تضم كليات للتجارة - كلية للبنات الإسلامية وفيها أقسام كثيرة تغطي معظم الدراسات الأدبية والإنسانية فضلا عن الدينية. كما تضم فروعًا للغات والطب والجراحة، وتضم جامعة الأزهر أيضا كليات للهندسة - والعلوم - والطب - والصيدلة - الزراعة - معهد اللغات والترجمة - معهد الدراسات الإسلامية والعربية. كما تم إنشاء عدد كبير من المعاهد الأزهرية الثانوية والإعدادية ومنها معاهد للفتيات، وتم إنشاء مدينة للبعوث الإسلامية على مساحة ٣٠ فدانا تضم دارسين من ٦٤ بلدًا وجنسية مختلفة.

وقد تضخمت الكليات والمعاهد والمدارس التابعة للأزهر وزاد عددها زيادة كبيرة جدا بحيث أصبحت في كل مدن وقرى مصر تقريبا بفضل مجهودات الشيخ عبد الحليم محمود شيخ الأزهر (١٩٧٣ - ١٩٧٨) الذي شجع ودعم المجهودات الذاتية الشعبية في إنشاء المعاهد

الأزهرية الإعدادية والثانوية والابتدائية في مختلف بلاد مصر مدنا وقرى كما تم إنشاء فروع لجامعة الأزهر في عدد من المحافظات مثل أسيوط - المنصورة - طنطا - الزقازيق - المنيا وغيرها. وقد بلغ عدد طلاب الأزهر في المرحلة الثانوية سنة ١٩٨٠ حوالى ١٤٧,٦٧٢ طالب.

وبلغ عدد طلاب المرحلة الجامعية حوالي ٥٠,٨٩٢ طالبا.

ولا شك أن تطوير الأزهر وإدخال الكليات الحديثة مثل الطب والهندسة والعلوم والزراعة وغيرها وإنشاء جامعة أزهرية للبنات وانتشار التعليم الأزهري في معظم مدن مصر وقراها هو عمل طيب ومثمر ويبشر بخير.

ولكن لم يؤدِ تطوير الأزهر النتائج المرجوة منه نظرا للصدام الذي حدث بين عبد الناصر والاتجاه الإسلامي في سنة ١٩٦٥ جعل علماء الدين والمتمسكين بالإسلام عرضة للسخرية في وسائل الإعلام المصرية في ذلك الوقت كما تعرض الكثيرون منهم للمطاردة والاعتقال مما أثر على نفوذ الأزهر لدى قطاعات الجماهير خاصة أن حكومة يوليو تمسكت بالسيطرة على الأزهر وتدخلت في تعيين مشايخ الأزهر بل وأوكلت بعض إداراته إلى العسكريين. ولكن ذهبت حكومة يوليو وبقي الأزهر بما تم فيه من تطوير ونظم تعليمية وكليات جديدة يمكن أن تكون قاعدة لنهضة إسلامية كبيرة لو خلصت النوايا.

على أننا نلمح في تلك الفترة ظهور مشايخ من الأزهر برغم عمليات السخرية والاعتقال والمطاردة وتقليص النفوذ والتشنيع على الأزهريين عن طريق وسائل الإعلام والسخرية منهم. ظهر عدد من المشايخ الشرفاء الذين انحازوا إلى الجماهير ووقفوا مع الأمة ضد استبداد الحكام - وناقشوا من خلال المنبر كل الشئون والتحديات التي تواجه الأمة من سياسية واجتماعية واقتصادية بل وتحولت مساجدهم إلى قلعة للنضال الشعبي وملاذا للمعارضة ونذكر من هؤلاء الشيخ عبد الحميد كشك إمام مسجد عين الحياة بالقاهرة والشيخ أحمد المحلاوي إمام مسجد القائد إبراهيم بالإسكندرية، والشيخ المحلاوي كان يعتبر زعيمًا للمعارضة ضد نظام السادات وقد أعتقل سنة ١٩٨١ ثم أفرج عنه بعد اغتيال السادات وكان مسجد القائد إبراهيم في نهاية السبعينات وأوائل الثمانينات ملاذا للمعارضة حيث لجأ إليه

فتحي رضوان وإبراهيم شكري وغيرهم لمخاطبة الجماهير التي كانت تحتشد أسبوعيا لسماع خطبة الجمعة التي يلقيها الشيخ أحمد المحلاوي.

التقريب بين المذاهب

من أهم الأعمال التي قام بها الأزهر - هو إنشاء جمعية للتقريب بين المذاهب وخاصة المذهبين السني والشيعي ولا شك أن مسألة التقريب بين المذاهب من الأمور الهامة على صعيد توحيد الأمة الإسلامية وتنسيق كفاحها ضد التحديات التي تواجهها بل وتقطع دابر دعاة الفتنة من الاستعماريين وأذنابهم الذين يريدون شق وحدة المسلمين وإيغار صدور بعضهم ضد بعض. وقد بذل الشيخ عبد المجيد سليم شيخ الأزهر (١٩٥٠ - ١٩٥٢) مجهودا كبيرا في هذا الصدد كما أفتى الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر (١٩٥٨ - ١٩٦٤) بجواز التعبد على المذهب الاثنى عشري واعتبره مذهبا معتمدا لدى أهل السنة بالإضافة إلى المذاهب المعتمدة لديها: الشافعي، الحنفي، المالكي، الحنبلي، وأفتى كذلك بجواز التعبد على المذهب الزيدي. وكل هذا جعل أمر الوقيعة بين المسلمين من أصحاب المذاهب المختلفة أمرا صعبا استنادا إلى تلك الفتاوى والجمعيات التي تعمل على التقريب بين المذاهب والحوار بينها.

زعماء من الأزهر

السيد عمر مكرم
ومناهضة الاستعمار والاستبداد

نشأته وحياته:

السيد عمر مكرم هو نقيب الأشراف في مصر قبل مجيء الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨، ولد بأسيوط بالوجه القبلي ونشأ بها وهو من سلالة الحسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، كان السيد عمر مكرم شجاعًا مقدامًا، رفيع الكلمة واسع النفوذ يكره الظلم ويدافع عن حقوق الشعب، ويرفض الخضوع، عالي النفس كريمًا، ولذا اعتبره الشعب المصري في ذلك الوقت زعيمه الأول.

عندما جاءت الحملة الفرنسية على مصر، قام السيد عمر مكرم بتنظيم المقاومة الشعبية وقاد المتطوعين للقتال ضد الفرنسيين في موقعة الأهرام عندما أراد الفرنسيون دخول القاهرة، فلما سقطت القاهرة في أيدي الفرنسيين فضل الرحيل إلى الشام على أن يبقى في مصر تحت سلطة الفرنسيين، رغم أن الفرنسيين عرضوا عليه عضوية الديوان فرفضها.

ثم عاد إلى القاهرة في عام ١٨٠٠مـ حيث شارك في ثورتها الثانية، ثم هرب إلى خارج مصر مرة أخرى بعد هزيمة ثورة القاهرة الثانية وقامت السلطات الفرنسية بمصادرة أملاكه جزاءً على مشاركته في الثورة.

وبعد رحيل الفرنسيين عاد مرة أخرى إلى مصر حيث نظم الثورة المصرية على الاستبداد ضد الوالي خورشيد باشا سنة ١٨٠٥ م وفي عام ١٨٠٧، وعندما جاءت حملة فريزر الإنجليزية إلى مصر قام السيد عمر مكرم بتنظيم المقاومة الشعبية ونجح في هزيمة الإنجليز في رشيد، وخروجهم من مصر رغم غياب والي مصر في ذلك الوقت محمد علي لانشغاله بمحاربة المماليك في الصعيد.

وعندما تمكن محمد علي من السيطرة على الحكم في مصر قام بالتخلص من زعماء الشعب وعلى رأسهم السيد عمر مكرم فحدد إقامته بمدينة دمياط سنة ١٨٠٩، ثم مدينة طنطا سنة ١٨٢٢ حيث توفي بها.

عمر مكرم مجاهــداً:

تميزت حياة السيد عمر مكرم بالجهاد المستمر ضد الاحتلال الأجنبي، والنضال الـدؤوب ضد استبداد الولاة وظلمهـم، وكـان ينطلـق في هـذا وذاك مـن وعـي إسـلامي عميـق وفـذ وإيجابي.

ففي إطار الجهاد ضد الاحتلال الأجنبي نجد أنه عندما اقترب الفرنسيون من القاهرة سنة ١٧٩٨ م قام السيد عمر مكرم بتعبئة الجماهير للمشاركة في القتال إلى جانب الجيش النظامي « جيش المماليك في ذلك الوقت »، وفي هذا الصدد يقول الجبرتـي: « وصـعد السـيد عمـر مكرم أفندي نقيب الأشراف إلى القلعة فأنزل منها بيرقًا كبيرًا أسمتـه العامـة الـبيرق النبـوي فنشره بين يديه من القلعة إلى بولاق وأمامه ألوف من العامـة » ويعلـق الرافعـي علـى ذلـك بقوله: «وهذا هو بعينه استنفار الشعب إلى التطوع العم بعد هجمات الغازي المغير والسير في طليعة المتطوعين إلى القتال ».

وعندما سقطت القاهرة بأيدي الفرنسيين، عرض عليه الفرنسيون عضوية الـديوان الأول إلا أنه رفض ذلك ، بل فضل الهروب من مصر كلها حتى لا يظل تحت رحمة الفرنسيس.

ثم عاد السد عمر مكرم إلى القاهرة وتظاهر بالاعتزال في بيته ولكنه كان يعـد العـدة مـع عدد من علماء الأزهر وزعماء الشعب لثورة كبرى ضد الاحتلال الفرنسي تلك الثورة الـتي اندلعت في عام ١٨٠٠م.. فيما يعرف بثورة القاهرة الثانية، وكان السيد عمر مكرم من زعماء تلك الثورة، فلما خمدت الثورة اضطر إلى الهروب مرة أخرى خـارج مصـر حتـى لا يقـع في قبضة الفرنسيين الذين عرفوا أنه أحد زعماء الثورة وقاموا بمصادرة أملاكه بعد أن أفلت هـو من أيديهم، وظل السيد عمر مكرم خارج مصر حتى رحيل الحملة الفرنسية سنة ١٨٠١ م.

وفي إطار جهاد السيد عمر مكرم ضد الاحتلال الأجنبي، نجد أن السيد عمـر مكـرم قـاد المقاومة الشعبية ضد حملة فريزر الإنجليزية ١٨٠٧م، تلك المقاومة التي نجحت في هزيمة فريـزر في الحماد ورشيد مما اضطر فريزر إلى الجلاء عن مصر، وفي هذا الصدد يقول الجبرتـي : «نبـه السيد عمر النقيب على الناس وأمرهم بحمل السلاح والتأهب لجهاد الإنجليز، حتى مجـاوري

الأزهر أمرهم بترك حضور الدروس، وكذلك أمر المشايخ بترك إلقاء الدروس »، ويعلق الرافعي على ذلك بقوله : «فتأمل دعوة الجهاد التي بثها السيد عمر مكرم والروح التي نفخها في طبقات الشعب، فأنك لترى هذا الموقف مماثلا لموقفه عندما دعا الشعب إلى التطوع لقتال الفرنسيين قبل معركة الأهرام، ثم تأمل دعوته الأزهريين إلى المشاركة في القتال تجد أنه لا ينظر إليهم كرجال علم ودين فحسب بل رجال جهاد وقتال ودفاع عن الزمان، فعلمهم في ذلك العصر كان أعم وأعظم من عملهم اليوم».

ولعل الرافعي قد وضع يده على النقطة الحرجة في مسألة الكفاح ضد الاستعمار والنجاح في هزيمته وحماية بلادنا منه، فإذا كان الشعب المصري قد نجح مرتين في أقل من عشر سنوات في هزيمة محتلين استعماريين هما الحملة الفرنسية ١٧٩٨ م ـ ١٨٠١ م، والحملة الإنجليزية المعروفة بحملة فريزر ١٨٠٧ م فإن ذلك يرجع إلى قيام علماء الأزهر بواجبهم في قيادة الشعب للجهاد والقتال والدفاع عن الزمار، يرجع إلى وجود العلاقة الصحيحة بين الأمة، وقيام الأزهر بواجبه كقيادة طبيعية للأمة، ولكن عندما قام محمد علي ومن بعده بفصم هذه العلاقة والقضاء على دور العلماء وإحلال النخب المغتربة محل العلماء في قيادة الأمة سقطت مصر في قبضة الاحتلال الإنجليزي سنة ١٨٨٢م.

وفي إطار نضال السيد عمر مكرم ضد الاستبداد والمظالم، نجد أنه قاد النضال الشعبي ضد مظالم الأمراء المماليك عام ١٨٠٤م، وكذا ضد مظالم الوالي خورشيد باشا سنة ١٨٠٥، ففي يوم ٢ مايو سنة ١٨٠٥ م بدأت تلك الثورة، حيث عمت الثورة أنحاء القاهرة واجتمع العلماء بالأزهر وأضربوا عن إلقاء الدروس وأقفلت دكاكين المدينة وأسواقها، واحتشدت الجماهير في الشوارع والميادين يضجون ويصخبون، وبدأت المفاوضات مع الوالي للرجوع عن تصرفاته الظالمة فيما يخص الضرائب ومعاملة الأهالي، ولكن هذه المفاوضات فشلت، فطالبت الجماهير بخلع الوالي، وقام السيد عمر مكرم وعدد من زعماء الشعب برفع الأمر إلى المحكمة الكبرى وسلم الزعماء صورة من مظالمهم إلى المحكمة وهي ألا تفرض ضريبة على المدينة إلا إذا أقرها العلماء والأعيان، وأن يجلو الجند عن القاهرة وألا يسمح بدخول أي جندي إلى المدينة حاملا سلاحه.

وفي يوم ١٣ مايو قرر الزعماء في دار الحكمة عزل خورشيد باشا وتعيين محمد علي بـدلا منه بعد أن أخذوا عليه شرطًا : «بأن يسير بالعدل ويقيم الأحكام والشرائع، ويقلع عن المظالم وألا يفعل أمرًا إلا بمشورة العلماء وأنه متى خالف الشروط عزلوه».

وفي يوم ١٦ مايو ١٨٠٥ صدرت فتاوى شرعية من المحكمة على صـورة سـؤال وجوابـه بشرعية عزل الوالي خورشيد باشا، وانتهي الأمر بعزل الوالي خورشيد باشا، ونجـاح الثـورة الشعبيـة.

وإذا تأملنا هذه الأحداث نجد أن هذه ثـورة شـعبية ضـد الاسـتبداد اسـتندت إلى فتـوى شرعية من المحكمة، وأنها قامت بتولية محمـد علـي حاكمًـا علـى مصـر مـن خـلال معاهـدة وشروط بين محمد علي « الوالي الجديد » وبين زعماء الشعب، وأقرت مبدأ الشورى، وعدم اتخاذ قرار بدون الرجوع لممثلي الشـعب، وهـم العلمـاء والأعيـان، ولـو سـارت الأمـور في مسارها الصحيح بعد ذلك لكان إيذانًا بروح مـن الحريـة والشـورى واحـترام إرادة الشـعب وخياراته يسود مصر، ولكن محمد علي التف على هذا الأمر وأفرغه من مضمونه فيما بعد.

وكان السيد عمر مكرم هو زعيم هذه الحركة الشعبية ومحركها، وفي ذلك يقول الرافعي : «كان للشعب زعماء عديدون يجتمعون ويتشاورون ويشتركون في تدبير الأمور، ولكل مـنهم نصيبه ومنزلته، ولكن من الإنصاف أن يعرف للسيد عمر مكرم فضـله في هـذه الحركـة فقـد كان بلا جدال روحها وعمادهـا ».

وإذا كان السيد عمر مكرم مجاهدًا ضد الاستعمار، مناضلا ضد الاستبداد فإنـه في نفـس الوقت كان يملك وعيًا إسلاميًا فذًا ومتقدمًا، ويظهر ذلـك مـن خـلال حـواره مـع مستشـار الوالي خورشيد باشا، ووفقًا لرواية الرافعي... فقد التقى السيد عمر مكرم يومًـا بعمـر بـك مستشار خورشيد باشا فوقع بينهما جدال..

فكان مما قاله عمر بك: « كيف تنزلون من ولاه السلطان علـيكم، وقـد قـال الله تعـالى: ﴿ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ ؟

فأجابه السيد مكرم : « أولو الأمر: هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العـادل، وهـذا رجل ظالم حتى السلطان والخليفة إذا سار في الناس بالجور فإنهم يعزلونه و يخلعونه.

فقال عمر بك: وكيف تحصروننا وتمنعون عنا الماء والأكل وتقاتلوننـا؟ أنحـن كفـرة حتـى تفعلوا معنا ذلك؟

فقال السيد مكرم: «قد أفتى العلماء والقاضي بجواز قتالكم ومحاربتكم؛ لأنكم عصاة».

سُليمان الحلبي

الأب الشرعي للحركة الطلابية

سليمان الحلبي هو شاب سوري ولد بمدينة حلب، وكان أبوه الحاج محمد أمين يعمل بالتجارة، التحق سليمان الحلبي بالأزهر ودرس به عدة سنوات ثم رحل عن القاهرة، ولما علم بقيام الفرنسيين بغزو مصر، وأن كليبر قد اقتحم الأزهر بالخيول وعبث بالكتب الدينية ثارت في نفسه الغيرة الإسلامية وقرر اغتيال الجنرال كليبر الذي عمل قائدًا للحملة الفرنسية بعد رحيل نابليون عن مصر إلى فرنسا.

أعد سليمان الحلبي عدته وسافر إلى القاهرة التي يعرف دروبها وشوارعها جيدًا من قبل، ونزل برواق الشوام في الأزهر وانتظم في سلك التعليم بالأزهر، ثم شكل خلية طلابية من أربعة من الطلبة هم: محمد الغزي وأحمد الوالي وعبد الله الغزي وعبد القادر الغزي، ومن خلال هذه الخلية الطلابية قام سليمان الحلبي ورفاقه بمراقبة الجنرال كليبر جيدًا ومعرفة تحركاته ومواعيده، وتم إعداد الخطة لاغتيال كليبر.

وفي يوم ١٤ يونيو ١٨٠٠ قام سليمان الحلبي بالتنكر في زي متسول وطعن كليبر بخنجره عدة طعنات في حديقة دار القيادة العامة الفرنسية بالأزبكية مما أدى إلى مصرع كليبر.

وقد تمت محاكمة سليمان الحلبي ورفاقه الأربعة وصدرت الأحكام بإعدام سليمان الحلبي بطريقة بشعة « على الخازوق » بعد حرق يده، وترك جثته تأكلها الطير، وإعدام رفاقه الأربعة بقطع رؤوسهم وإحراق جثثهم بعد الإعدام، وقد تم تنفيذ الحكم في سليمان الحلبي وثلاثة من رفاقه، أما الرابع فكان قد هرب وهو عبد القادر الغزي.

وهكذا فنحن أمام خلية طلابية انضمت إلى الثورة، وخططت ونفذت عملية من أخطر عمليات المقاومة ضد الاحتلال الفرنسي، وهذه الخلية الطلابية هي جزء من حركة طلابية أزهرية شاركت في النضال ضد الاستعمار الفرنسي، وقد تطورت هذه الحركة الطلابية فيما بعد فأصبح هناك حركة طلابية مصرية في الأزهر وغيره من الجامعات والمدارس المصرية، ولكن يبقى أن سليمان الحلبي هو الأب الشرعي للحركة الطلابية المصرية، وهذه الخلية

الأزهرية هي باكورة العمل الطلابي المصري عمومًا، ولعل الحركة الطلابية المصرية قد أخذت تقاليدها في الكفاح ضد الاستعمار من هذه الخلية الأزهرية التي نفذت اغتيال كليبر.

علماء مجاهدون

العلماء ورثة الأنبياء، وعلماء أمة الإسلام مثل أنبياء بني إسرائيل، وقد فرض الله تعالى على علماء الإسلام كثيرًا من المهام والتكاليف سواء في حفظ الدين أو الدفاع عن الأمة أو نصرة المستضعفين، أو قيادة الأمة في الاتجاه الصحيح دفاعًا عن مصالحها وأهدافها.

والعلاقة بين العلماء والأمة تؤدي إلى تماسك تلك الأمة وقدرتها على المواجهة والصمود والنصر، وإذا انفصمت تلك العلاقة بسبب أو بآخر أو تقاعس العلماء عن أداء دورهم أو باعوا ضمائرهم للحكام فإن مصيرًا مظلمًا ينتظر هذه الأمة.

وعلى سبيل المثال فإنه عندما كان علماء الأزهر هم القيادة الشعبية الطبيعية للأمة، وعندما كان هؤلاء العلماء على مستوى الدور المنوط بهم نجحت مصر في صد غزوتين استعماريتين هما الحملة الفرنسية ١٧٩٨ ـ ١٨٠١، والحملة الإنجليزية بقيادة فريزر سنة ١٨٠٧م، بل ونجحت أيضًا في إحداث ثورة شعبية ضد الاستبداد سنة ١٨٠٥م، بل إننا نؤكد أنه لم يحدث شيء إيجابي في تاريخ هذه الأمة إلا عندما اضطلع علماء الأزهر بدورهم الطليعي والطبيعي، وعندما انفصمت هذه العلاقة تفكك التماسك الجماهيري ونجحت قوات الاستعمار في السيطرة على مصر والتنكيل بأهلها.

وقراءة يوميات المقاومة المصرية ضد الحملة الفرنسية مثلا تقول: إن الأزهر كان محورًا لحركة المقاومة، وكان علماء الأزهر وطلابه هم قيادات المقاومة.

ففي ثورة القاهرة الأولى، كان الأزهر وكان العلماء، وكان قائد الثورة الشيخ محمد السادات يقول ريبو: « كان في الجامع الكبير المعروف بالأزهر لجنة لتدير الثورة » [(١)].

ويقول نابليون في مذكراته: « إن الشعب قد انتخب ديوانًا للثورة من علماء الأزهر، وأن الشيخ السادات انتخب رئيسًا لهذا الديوان » [(٢)].

---

(١) ريبو، التاريخ العلمي والحربي للحملة الفرنسية في مصر، الجزء الرابع.

(٢) مذكرات نابليـون.

ويقول الرافعي : «فالأزهر إذن كان مركز الثورة » [١].

وإذا تتبعنا أسماء هؤلاء الذين تمت محاكمتهم بتهمة قيادة الثورة نجدهم جميعًا من علماء الأزهر يقول الرافعي : «أما الذين حوكموا رسميًا من المقبوض عليهم باعتبارهم زعماء الثورة فهم الشيخ إسماعيل البراوي والشيخ المصيلحي والشيخ عبد الوهاب الشبراوي والشيخ سليمان الجوسقي والشيخ أحمد الشرقاوي وكلهم من أواسط علماء الأزهر » [٢].

ونظرًا لأن الأزهر كان قيادة للثورة فإن الجنود الفرنسيين قد اقتحموه وعاثوا فيه فسادًا وذلك للقضاء على بؤرة الثورة وهو أمر يثبت بشاعة الفرنسيين ولكنه يسجل في نفس الوقت الدور المشرف للأزهر في تنظيم المقاومة ضد الاحتلال الأجنبي وفي ثورة القاهرة الثانية، أو في المقاومة الشعبية في الوجهين القبلي والبحري، نجد أن علماء الأزهر كانوا دائمًا الوقود المحرك للمقاومة والقيادة الطبيعية لها، بل ونجد أن أحد طلاب الأزهر ينفذ عملية اغتيال للجنرال كليبر قائد الحملة الفرنسية بعد رحيل نابليون وهو سليمان الحلبي.

وفي سنة ١٨٠٧ م عندما جاءت حملة فريزر الإنجليزية، وكان الوالي محمد علي مشغولا بمطاردة المماليك في الصعيد، قام علماء الأزهر بتعطيل الدروس والتطوع في المقاومة وحشد الأهالي مما أدى إلى هزيمة الإنجليز في موقعتي الحماد ورشيد ورحيلهم عن مصر.

وفي إطار النضال ضد الاستعمار أيضًا نجد أن عبد الله النديم قد شكل جيشًا من علماء الأزهر للتحريض والتطوع وجمع الأموال من أجل المجهود الحربي للجيش المصري ضد الإنجليز سنة ١٨٨٢م، كما تكرر الأمر في ثورة ١٩١٩ م حيث كان الأزهر أحد أهم مراكز تلك الثورة.

وفي إطار النضال ضد الاستبداد نجد أن علماء الأزهر قد قادوا الشعب المصري للثورة ضد الوالي خورشيد باشا سنة ١٨٠٥م، بل وأفتى القاضي بجواز الخروج على الوالي الظالم وجواز قتاله ولو كان مسلمًا [٣]، بل ونجد أن هؤلاء العلماء قد اشترطوا على محمد علي لتوليته واليا أن يرجع في كل أموره إليهم وألا يبرم رأيًا بدون مشورة العلماء والأعيان [٤].

(١ ، ٢) الرافعي ، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، الجزء الأول.

(٣ ، ٤) الرافعي ، تاريخ الحركة القومية جـ ٢.

ويذكر التاريخ بالفخر الشيخ حسن عليش الذي أفتى بكفر الخديوي توفيق لاستدعائه الأجانب الكفار، وقد انحاز الشيخ حسن عليش ومجموعة كبيرة من العلماء إلى عرابي ضد الخديوي توفيق سنة ١٨٨٢م [١].

ومن الأزهريين المجاهدين أيضًا الشيخ علي الغاياتي الذي سخر قلمه للنضال ضد الإنجليز والخديوي، وكان يكتب القصائد الشعرية الملتهبة والتي تحض على مناهضة الاستعمار ورفض الاستبداد، بل ووصل الأمر إلى حد أنه عندما أصدر ديوانًا شعريًا قامت السلطات بمحاكمته مع كل من محمد فريد وعبد العزيز جاويش، وصدرت ضدهم الأحكام مما اضطر الشيخ علي الغاياتي للهرب من مصر سنة ١٩١٠، حيث واصل نضاله في المنفى [٢].

وفي نفس الفترة نجد العالم الأزهري الشيخ عبد العزيز جاويش يتبنى تحرير صحيفة الحزب الوطني والجاهد الدائب ضد الاستعمار والاستبداد [٣].

ولعلنا لا ننسى أن نذكر أن علماء الدين من أمثال الشيخ عبد الحميد كشك الذي تصدى للاستبداد الناصري والساداتي، وكذا الشيخ أحمد الحملاوي الذي قاد المعارضة لاتفاقية كامب ديفيد التي وقعها السادات مع الكيان الصهيوني في عام ١٩٧٨ م.

وليس الأمر قاصرًا على الموقف من الاستعمار والاستبداد، بل إن هناك من علماء الإسلام من دافع عن الأقليات غير المسلمة، فالشيخ زنبيلي علي أفندي شيخ الإسلام هو الذي وقف أمام السلطان سليم الأول العثماني عندما أراد تهجير بعض النصارى،وقال له : «ليس لك على النصارى واليهود إلا الجزية وليس لك أن تزعجهم عن أوطانهم » [٤].

والشيخ الباجوري شيخ الأزهر في أثناء حكم عباس الأول تصدى للخديوي عندما أراد أن يبعد النصارى المصريين إلى السودان وقال له : «الحمد لله لم يطرأ على ذمة الإسلام طارئ، ولم يستول عليها خلل وهم في ذمته إلى اليوم الآخر » [٥].

---

(١) الرافعي، الثورة العرابية.

(٢، ٣) الرافعي - محمد فريد.

(٤) شكيب أرسلان، حاضر العالم الإسلامي.

(٥) طارق البشري، المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية.

الأفغاني والمنهج الثوري

لم يكن السيد جمال الدين الأفغاني باعثًا لحركة الثورة الإسلامية والنهوض الإسلامي في مصر وحدها بل وفي معظم بلاد العالم الإسلامي، فحركة الأفغاني وجهاده اشتملت على أفغانستان وإيران ومصر وتركيا والهند، فحيثما حل الرجل كان ثورة، كما امتدت آثاره السياسية والفكرية إلى تونس والجزائر والمغرب والسودان والشام، يقول د. محمد محمد حسين في كتابه الإسلام والحضارة الغربية : « لم تقف جهود السيد جمال الدين الأفغاني في هذا المجال على مصر وحدها بل تعدتها إلى بلدان إسلامية أخرى كالجزائر وتونس والشام والسودان والهند، فقد أشرك زعماء الحركة الوطنية في هذه البلدان في جمعية العروة الوثقى وغيرها من الجمعيات » .

ولا شك أن آثار السيد جمال الدين الأفغاني امتدت بعد ذلك لتشمل كل حركات المقاومة الإسلامية ضد الاستعمار سواء كانت مسلحة أو سلمية في معظم أقطار العالم الإسلامي.

ولكن لماذا حقق السيد جمال الدين الأفغاني كل هذه الآثار وأحدث تلك الهزة العنيفة في الوجدان الإسلامي.

إن السيد جمال الدين الأفغاني لم يأت بشيء جديد، ولكنه استند إلى الوجدان الشعبي المشبع بالروح الإسلامية وراح ينفض عن كاهل الأمة غبار التخلف والجمود، وكان السيد جمال الدين الأفغاني يمتلك عقلاً جبارًا وذكاءً خارقًا وحماسًا متقدًا، وعاطفة مشبوبة، عزيز النفس مترفع عن المال والجاه إذا تحدث أثر في السامعين حتى أبكاهم، وإذا انكب على تحصيل العلم التهمه التهامًا.

استطاع السيد جمال الدين الأفغاني أن يحلل أوضاع المسلمين في تلك الفترة تحليلاً دقيقًا، وأن يلمس بيده أسباب التخلف وطرق الإقلاع من هذا التخلف، وتحقيق النهضة، وإذا حاولنا أن نرسم صورة لذلك التحليل الذي وضعه السيد جمال الدين الأفغاني عن طريق

القراءة في العروة الوثقى أو غيرها مما كتبه السيد جمال الدين الأفغاني أو من محاضراته أو دروسه لوجدنا أن السيد جمال الدين الأفغاني كان يرى :

- أن الاستبداد وطغيان الحكام هما سبب تفرق كلمة المسلمين.
- أن على المسلمين لكي ينهضوا أن يثوروا على الاستبداد ويقيموا الحكم الشورى العادل.
- أن أوروبا تتربص ببلاد الإسلام وأن على المسلمين مقاومة النفوذ الأجنبي.
- أنه لا طريق إلى النهضة إلا عن طريق نشر العلوم الطبيعية والاجتهاد في تحصيلها والاهتمام بالصناعة.
- أن وحدة المسلمين هي الطريق الحتمي أمامهم للوقوف أمام تحديات الغرب الصليبي.

كان السيد جمال الدين الأفغاني من كبار دعاة الجامعة الإسلامية، وكان يرى المحافظة على الخلافة العثمانية باعتبارها جامع يجمع المسلمين من التفرق والتشرذم، ولكن هذا لم يمنعه من أن ينتقد السلطان بسبب الفساد أو الاستبداد، وكان السيد جمال الدين الأفغاني يرى أن توجيه النقد للسلطان والتصدي لأسباب الفساد والاستبداد داخل الخلافة لا يضعفها بل يقويها لأن الفساد والاستبداد هما اللذان سيدمرانها، وبالتالي فمن واجب المسلم التصدي لهذا الفساد والاستبداد لحماية الخلافة نفسها.

كان السيد جمال الدين الأفغاني إسلاميًا فهم الإسلام ولذلك لم يكن متعصبا، ولا طائفيًا، بل استطاع أن يحشد خلفه ليس المسلمين فقط، بل كذلك المسيحيين واليهود على قاعدة الانتماء لحضارة الإسلام، وكان يرى أن الحرب مع أوروبا هي حرب صليبية أساسا، ولكن هذا شيء ومحاولة تجميع كل من ينتمي إلى الحضارة الإسلامية في خندق واحد أمام الحضارة الأوروبية الغازية شيء آخر، كان غير المسلمين يساهمون في تأييد والتلمذة على يد السيد جمال الدين الأفغاني على قاعدة الانتماء للإسلام كحضارة وكثقافة وكوطن، وهكذا وضع السيد جمال الدين الأفغاني الأساس الصحيح للعلاقة بين المسلمين وغيرهم في بلادنا، وهي العلاقة التي تقوم على ضرورة انتماء غير المسلم في هذه البلدان إلى الإسلام كثقافة وحضارة ووطن، ولم يكن عجيبًا إن إسلامية السيد جمال الدين الأفغاني كانت من النضج بحيث نجد

مسيحيين كسليم نقاش وأديب إسحاق ويهود مثل يعقوب صنوع من أهم مناصري الأفغاني وتلاميذه ومؤيديه.

ولأن الأفغاني كان إسلاميا، فقد كان منحازًا إلى الفقراء والمستضعفين، فهو يقول : « أيها الفلاح، يا من تشق الأرض بفأسك، لماذا لا تشق رأس ظالميك ».

ولأن الأفغاني كان إسلاميا فقد كان ثوريا لا يؤمن إلا بالثورة كوسيلة، للتغيير، فالحرية والاستقلال لا يوهبان عن طيب خاطر، بل إن الأمم تحصل عليها بالقوة، أو بشق رأس الظالم كما كان يقول للفلاح وكان حربًا على الخرافة، فهو يرفض من يقول بالفناء في الله ولكن الفناء في رأيه يكون بالعمل على خدمة خلق الله ومساعدتهم والدفاع عنهم.

وهو دعوة إلى العلم والتعليم، فهو بنفسه يدرس لتلاميذه الرياضيات والفلك والكيمياء والطبيعة إلى جانب دروس التوحيد والفقه والأخلاق والفلسفة.

وهو المدافع عن الإسلام ضد الملحدين والماديين، بل ويحرر كتابًا في الرد على الدهريين يفحمهم فيه بالحجة والبيان.

إذن فالأفغاني هو باعث النهضة الإسلامية، وهو الأب الروحي للثورة العرابية، وله آثاره الممتدة شرقًا وغربًا على حركات المقاومة الإسلامية ضد الاستعمار، وهو المكافح ضد استبداد السلطان من داخل وفي إطار الدفاع عن الخلافة الإسلامية، هو الذي يدعو إلى مقاومة النفوذ الأجنبي والاستبداد، وهو المضطهد من نفي إلى نفي، وهو حرب على الجمود والخرافة، وهو يدعو إلى وحدة المسلمين، وإلى الجهاد وإلى الحرية وهو مع قضايا الإسلام على طوال الخط، ومع ذلك نجد البعض ينتقده لأنه انضم إلى المحافل الماسونية مع أن المسألة أبسط من ذلك بكثير، فلم تكن تلك المحافل قد انكشف أمرها، وحاول الأفغاني أن يستفيد بها فلما لم يستطع الاستفادة بها لفظها ولفظته وانتهى الأمر، وشأنه في ذلك شأن أي مناضل معاصر إذا ما حاول الاستفادة من جمعيات حقوق الإنسان أو أنشأ واحدة منها أو انضم إلى إحداها، ثم اكتشف بعد ذلك أن تلك الجمعيات العاملة في مجال حقوق الإنسان ليست بريئة الغرض فهل هذا يعيب هذا المناضل، إذا فمسألة المحافل الماسونية أيام جمال الدين لا تعدو أن تكون

كالجمعيات الخاصة بحقوق الإنسان ، وإلى أن يتم اكتشاف حقيقة تلك الجمعيات فإنهـا تظـل بريئة إلى أن يثبت العكـس.

محمد عبده و المنهج الإصلاحي

الفرق بين الأفغاني ومحمد عبده هو الفرق بين المنهج الثوري والمنهج الإصلاحي، وهو فرق كبير جدًا.

وصحيح أن الشيخ محمد عبده هو تلميذ الأفغاني، وصحيح أنه شارك معه في إصدار مجلة العروة الوثقى، ولكن هذا ليس كافيًا لأن الفرق بين الرجلين وبين الدراستين وبين المنهجين كبير جدًا.

ولد الشيخ محمد عبده في بلدة « محلة نصر » من محافظة البحيرة سنة ١٨٤٩م وحفظ القرآن الكريم ثم ذهب إلى الجامع الأحمدي بطنطا حيث تلقى العلم لمدة ثلاث سنوات، ثم ذهب إلى الأزهر فقضى به عامين ثم تتلمذ على يد السيد جمال الدين الأفغاني وأخذ عنه الفلسفة والتصوف والأصول وعلوم الرياضة والأخلاق والسياسة، وبدأت مواهبه تتفتح فألف الفصول الممتعة في المنطق والفلسفة والتربية والاجتماع والأدب ونشرها في الصحف السائرة في ذلك العصر مثل الأهرام، ومصر، والتجارة، ثم نال شهادة العالمية من الأزهر سنة ١٨٧٧م، وأخذ يلقي الدروس في الأزهر في التوحيد والمنطق والأخلاق بأسلوب جديد لفت إليه الأنظار وحبب الطلاب في تلك العلوم، ثم تعلم اللغة الفرنسية لكي تساعده على الاطلاع على علوم الغرب وآدابه، وعين سنة ١٨٧٨م مدرسًا للتاريخ بمدرسة دار العلوم، ومدرسًا للغة العربية في مدرسة الألسن مع الاستمرار في التدريس بالأزهر، ولما تولى رياض باشا رئاسة الوزارة في أوائل عهد الخديوي توفيق عينه محررًا بالوقائع المصرية، ثم رئيسًا لتحريرها، ويقول الرافعي : « إن محمد عبده لم يكن من أنصار الثورة العرابية حين شبوبها، بل مؤيدًا لرياض باشا، ولم يكن يشاطر العرابيين رأيهم في الحكم الدستوري، بل كان يجادلهم في ذلك ويميل إلى نظام الحكم الفردي المقرون بالإصلاح حتى يعم التعليم وتنضج الأمة للدستور » [1].

---

(١)(الرافعي، الثورة العرابية والاحتلال الانجليزي ص ٤٦٨).

بل ويصل إلى حد إنشاء القصائد لتأييد رياض باشا ضد الثورة العرابية عقب حوادث ٩ سبتمبر ١٨٨١ م، حيث يقول في مطلع قصيدته :

قامت عصابات جند في مدينتنا   لعزل خير رئيس كنت راجيه

ويقصد هنا بعصابات الجند: « العرابيين »، وبخير رئيس « رياض باشا ».

بل لما وقع الخلاف بين العرابيين وشريف باشا في مسألة الميزانية انحاز إلى رأي شريف باشا، وكان العرابيون يرون أن مسألة الميزانية من صميم السيادة الوطنية ويجب رفض مطالب إنجلترا وفرنسا بمنع البرلمان من نظر الميزانية وكان شريف باشا يرى الاستجابة لهذا المطلب الأوروبي.

ولكن حين انتصرت الثورة في تلك المعركة، وسيطرت الثورة على الوزارة، وتم تشكيلها من العرابيين برئاسة محمود سامي البارودي، انضم الشيخ محمد عبده إلى الثورة وأصبح من دعاتها، وبعد هزيمة الثورة تمت محاكمة الشيخ محمد عبده وصدر عليه حكم بالنفي من البلاد ثلاث سنوات فذهب إلى باريس والتحق بالأفغاني وأصدر العروة الوثقى التي ما لبثت أن توقفت.

وعاد السيخ محمد عبده إلى مصر سنة ١٨٨٩ م، وانقطع عن الكفاح السياسي، بل لعن السياسة والساسة وقال في كتابه المشهور « الإسلام والنصرانية » : « أعوذ بالله من السياسة، ومن لفظ السياسة، ومن ساس ويسوس وسائس ومسوس »، بل ندم على مشاركته في الثورة العرابية، وتوقف تمامًا عن مراسلة الأفغاني، بل حتى عندما مات الأفغاني لم يكتب الشيخ محمد عبده فيه أو عنه كلمة رثاء واحدة.

وفي تلك الفترة ارتبط الشيخ محمد عبده باللورد كرومر على أساس أن يحصل على تأييده في برنامجه الإصلاحي لتحسين وإصلاح الأوقاف والتعليم في الأزهر، واستطاع الشيخ محمد عبده أن يصبح مفتيًا للديار المصرية سنة ١٨٩٩م وكذلك أصبح عضوًا في مجلس الأوقاف ومجلس شورى القوانين، وبذل جهودًا كبيرًة في تحسين أحوال التعليم الأزهري ونشر المؤلفات السلفية وإحياء العلوم العربيــة.

ولعل أهم آثار الشيخ محمد عبده الفكرية « رسالة التوحيد » وكذلك رده على طعنات المستشرقين على الإسلام في حواره مع المستشرق هانونو، وكذلك كتابه « الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية » وكذلك تفسيره للقرآن الكريم.

وتوفي الشيخ محمد عبده سنة ١٩٠٥ م، ولم يترك أموالا لورثته.

من حق أي إنسان أن يقول أن الشيخ محمد عبده كان رجلا نزيهًا وشريفًا، ولم يكن جامع ثروة ولا طالب سلطة، وأنه فعل ما فعل من أجل إطلاق يده في الإصلاح، ومن حق أي إنسان أن يقول أن الشيخ محمد عبده قد خدم الإسلام والفكر الإسلامي من خلال مؤلفاته وردوده على المستشرقين ومن خلال عمله في الأزهر والتعليم، ومن حق أي إنسان أن يقول أنه كان طاقة عقلية جبارة حققت التجديد في الفكر الإسلامي، وأنه كان أديبًا كبيرًا ويتمتع بمواهب كثيرة، ومن حق أي إنسان أن يقول أكثر من هذا، ونحن أيضا نرى هذا وأكثر منه في الشيخ محمد عبده ولا نشك في إخلاصه ولكن ليس من حق أحد أن يقول أن الشيخ محمد عبده كان امتدادا للأفغاني، وانه ينتمي إلى المنهج الثوري الإسلامي أو حتى لفكر الحركة الإسلامية، هذا شيء آخر تمامًا، والمشكلة هنا أن بعض الدارسين وبعض الإسلاميين، بل وقطاعات كبيرة من الحركة الإسلامية تجعل الشيخ محمد عبده احد روافد الفكر الثوري الإسلامي، وهنا مكمن الخطأ والخطر، فالشيخ محمد عبده لم يكن ثوريًا يومًا ما ولم يكن ينتمي إلى هذا المنهج أبدًا حتى ولو كان قد شارك في آخر مراحل الثورة العرابية، وحتى لو كان تلميذًا للأفغاني، وشارك معه في إصدار « العروة الوثقى » نعم لكل هذه الأمور أسبابها وظروفها التي لا تنفي ثورية الشيخ محمد عبده فحسب، بل تؤكد عدم إيمانه بهذا المنهج إطلاقًا، نعم من حق أي إنسان أن يشيد بالشيخ محمد عبده وهو يستحق الإشادة، ومن حقه أن يعتبره مصلحًا وأن يقول أنه قدم خدمات للإسلام والفكر الإسلامي، ولكن هذا شيء والنهج الثوري شيء آخر تمامًا.

بل من حق أي إنسان أن يفضل المنهج الإصلاحي على المنهج الثوري ويفضل بالتالي محمد عبده على الأفغاني والنديم ومصطفى كامل وحسن البنا، ولكن ليس من حقه أن يخلط

بين هذا المنهج وذاك وليس من حقه أن يجعل محمد عبده أحد رواد الفكر الثوري أو فكر الحركة الإسلامية.

أكثر من هذا من حق أي إنسان أن يقول: إن الطريق الصحيح للنهضة الإسلامية يكمن في المنهج الإصلاحي وفي سلوك محمد عبده وأنه يجب إصلاح التعليم والتربية أولا.

من حقه أن يدين أسلوب الثورة الإسلامية ويقول أنه لن يؤدي إلى نتائج، بل حتى من حق أي إنسان أن يقول أنه لا أمل في إصلاح المسلمين لا بالثورة ولا بالإصلاح، ويجب بالتالي الاهتمام بدعوة أهل أوروبا أو أمريكا أو روسيا أو اليابان إلى الإسلام وبعد إسلام هؤلاء أو جزء منهم يمكنهم تحقيق النهضة الإسلامية بما يمتلكونه من تقدم مادي، من حق أي إنسان أن يفكر ويختار الطريق الصحيح للنهوض الإسلامي، ولكن ليس من حق أحد أن يخلط الأوراق ويجعل الشيخ محمد عبده مفكرًا ثوريا أو أحد روافد الفكر الإسلامي.

ولكن من حقنا أن نتكلم عن المنهج الإصلاحي من خلال الشيخ محمد عبده، فالشيخ محمد عبده كان يريد البدء بإصلاح التعليم وترقية عقول الأمة حتى ولو من خلال السكوت على النفوذ الأجنبي أو تأييد المستبدين، فنجده يهاجم الثورة العرابية ويؤيد رياض باشا أكبر مستبد في عصره، بل ويؤيد أو يسكت عن النفوذ الأجنبي ويتحالف مع كرومر من أجل إطلاق يده في الإصلاح، وحتى في الفترة التي أيد فيها الثورة العرابية كان من منطلق أنها أصبحت القوة المسيطرة وبالتالي فلابد من التحالف معها لتحقيق الإصلاح، ولكن هل حقق الشيخ محمد عبده شيئًا؟.

يقول زكريا سليمان بيومي في كتابه دراسة تاريخية في فكر الشيخ محمد عبده ص ١١ : « كان تأييد كرومر له في خطواته الإصلاحية تأييدًا محدودًا، ومات الشيخ محمد عبده دون أن يحقق ما يصبو إليه ».

. هذه مأساة الإصلاحيين، الذين يظنون أن بالإمكان الإصلاح في ظل الاحتلال الأجنبي أو الاستبداد، ويكتشفون في النهاية أنهم ماتوا ولم يصلحوا شيئًا، لأن الاحتلال والاستبداد ضد الإصلاح ويسمح بقدر منه في إطار الاستفادة من ذلك في ضرب الثورة لا أكثر ولا أقل.

وبديهي أن المنهج الثوري أكثر وعيًا وشمولية، لأنه يدرك منذ اللحظة الأولى أن النفوذ الأجنبي والاستبداد لن يسمحا بالإصلاح لأنه خطر عليهما، ولأن المنهج الثوري يعتقد أن القضاء على النفوذ الأجنبي والاستبداد مقدمان على كل شيء، بل النضال ضدهما هو الطريق الوحيد للإصلاح، والأمة تتعلم من خلال الثورة وتتطور أيضا من خلال النضال.

والمنهج الثوري أكثر شمولا، لأنه يأخذ في اعتباره الاستفادة من المصلحين والإصلاحيين، ولكن دون أن يفرط في منهجه ولا في أهدافه ولا في وسائله، بل يستفيد من كل شيء ممكن ما دام مشروعًا وما دام في صالح الثورة الإسلامية.

المنهج الثوري منهج متسق مع نفسه، واضح المعالم، أما المنهج الإصلاحي فمنهج متردد، فترى أحد الإصلاحيين يؤيد الاستبداد ثم يلحق بالثورة ثم يعود فيندم على مشاركته في الثورة، بل ويلعن السياسة وكل مشتقاتها اللغوية.

المنهج الثوري يعرف أن الحليف الطبيعي والقادر على إنجاز النهضة هو الأمة ـ الشعب ـ الجماهير، أما المنهج الإصلاحي فيعمل من خلال النظام مهما كانت عيوبه، حتى ولو كان نظام احتلال أو خديوي مستبد، حتى ولو كان كرومر الذي جمد الاقتصاد المصري، وطارد الوطنيين، وألغى الحريات النيابية والصحافية، بل وحاول تدمير التعليم الوطني والقضاء على اللغة العربية، وهو الأمر الذي يهتم به المصلحون مثل الشيخ محمد عبده، ومع ذلك كان اللورد كرومر صديقًا للشيخ محمد عبده.

المنهج الثوري هو الأفغاني والنديم ومصطفى كامل والمنهج الإصلاحي هو محمد عبده.

عبد الله النديم

عاش فقيرًا ومات فقيرًا، وظل دائمًا ملتصقًا بالشعب محبًا له لا يطيق الابتعاد عنه، وبادله الشعب حبًا بحب فأعطاه ثقته وحمايته، وسمع له دائمًا واستجاب .

عبد الله النديم، رجل متعدد المواهب، فهو خطيب فذ، بل هو أعظم من عرفت مصر من الخطباء، وهو كاتب يقطر قلمه حماسًا أو سخرية، وصحفي لامع تنفد صحفه فور صدورها ويتخاطفها الناس، وهو زعيم الثورة العرابية الحقيقي، وهو كاتب مسرحي كبير .

لم يستغل عبد الله مواهبه المتعددة ولا ذكاءه المتقد في جمع المال أو البحث عن الوظائف، وقد كان هذا ممكنًا، بل وطريقًا اتخذه الآخرون، ولكن ربط ثقافته بالشعب وجعل ثقافته من الشعب وإلى الشعب، فمات معدمًا في حين مات الطهطاوي وهو أقل ذكاءً وموهبة من النديم، وقد ترك ٢٥٠٠ فدانًا عدا النقود والعقارات . أما النديم فمات وترك ثروة من العمل الجماهيري والرصيد الثوري وتجارب العمل الإسلامي الناضج وترك مدرسة هي من أهم مدارس الفكر الثوري في التاريخ ألا وهي مدرسة الثورة الإسلامية.

كان النديم كأستاذه الأفغاني إسلاميًا حتى النخاع ـ وكذلك ثوريا وجماهيريا ونصيرًا للمستضعفين.

كان النديم شعلة من الحماس، فهو في اليوم الواحد يحرر المقالات ويلقي الخطب في المنتديات، ويذهب إلى الفلاحين في الحقول أو ينظم المظاهرات أو يحشد الجماهير خلف الثورة، أو يلقي تعليماته على جهازه الإعلامي المتكون من الأزهريين الصغار والمتوسطين، كان دائم الحركة لا تكاد تراه يسكن .

كان النديم هو القائد الحقيقي والفعلي للثورة العرابية، فهو الذي نظم خلاياها السرية الأولى، وهو الذي ضم إلى هذه الخلايا زعماء الثورة أمثال عرابي وعبد العال حلمي وعلي فهمي وغيرهم، وهو الذي لا يترك مواقع الثورة أينما تكون، فهو يجمع التوقيعات من أجل توكيل عرابي في الحديث باسم الأمة قبل ٩ سبتمبر ١٨٨١م، وهو يحشد ويقود الجماهير لتقف مع الجيش في ميدان عابدين في ٩ سبتمبر ١٨٨١م، وهو يجعل الجيش والشعب في

صعيد واحد من أجل الثورة، ويفسد المخططات الرامية لعزل الشعب عن الجيش في الثورة العرابية، فعندما يصدر القرار بإبعاد فرق الجيش الثورية عن القاهرة نجد النديم معها مسافرًا إلى دمياط أو الشرقية، وفي كل رحلة يحشد الجماهير لوداع الجنود ويخطب في الاثنين معًا لزيادة هذا التلاحم، وهو مع الجنود في القطارات المسافرة التي تقف في كل محطة تمر بها لتكون فرصة أخرى لزيادة التلاحم بين الشعب والجيش فنجد النديم قد أعد عدته ليقوم الأهالي في كل بلدة يمر بها القطار بعمل احتفال وتظاهر لإعلان التضامن، ونجد النديم كعهده دائمًا يخطب في هؤلاء ليزيد الوعي ويلقي على الثورة مزيدًا من الوقود لتأجيجها، وفي محطات الوصول يتكرر نفس الشيء بل يقوم بعمل علاقات تنظيمية في تلك البلاد التي استقرت بها فرق الجيش المنقولة بين خلايا الثورة في الشعب وفي الجيش – وكل هذا جعل الذين خططوا لإبعاد الجيش عن الشعب بنقل فرق الجيش الثائرة بعيدًا عن القاهرة يكتشفون أن كل ما قاموا به زاد من قوة الثورة وحقق لها الانتشار في الأقاليم وليس القاهرة وحدها . وذلك بفضل النديم – فيعيدون النظر في قرارهم ذلك ويقررون استعادة عرابي إلى القاهرة، والنديم يذهب إلى الفلاحين في الحقول، ويذهب إلى الطلبة في معاهد العلم ليحشد ويحرض ويدعو إلى الثورة .

ويصدر النديم العديد من الصحف ويشارك في تحرير البعض الآخر من أجل تسليح الجماهير بالوعي والدعوة إلى الثورة – والدفاع عن المستضعفين ومهاجمة أعداء الثورة ويركز على النفوذ الأجنبي والاستبداد الخديوي .

بل ويقوم بتأليف التمثيليات والمسرحيات لتكون أداة التغيير الثوري والدعاية لثورة مثل تمثلية العرب وتمثلية الوطن وطالع التوفيق، بل ويصبح الجهاز الإعلامي الثوري من أفضل ما عرفه تاريخ الثورات من إعلام بفضل النديم الذي يخطب ويدرب طلاب الأزهر أو المدارس أو خطباء المساجد على الخطابة الثورية، والذي يحرر الصحف ويدرب المحررين في الكثير من الصحف مثل التنكيت والتبكيت ـ مصر ـ التجارة، يرددها الناس في المظاهرات أو الحفلات على السواء.

وبعد أن تقرر إنجلترا ذبح الثورة بواسطة جيشها وأسطولها بعد أن استعصت تلك الثورة على التطويق والاحتواء، نجد النديم في كل موقع مع الجنود في القتال يخطب فيهم لرفع روحهم المعنوية، أو في القرية والمدينة يحرض الجماهير على التطوع أو التبرع بالمال والملابس والطعام فتستقبله الجماهير، فإذا بعشرات الألوف يتطوعون، وإذا بالتبرعات تنهال على خزائن الجيش حتى أنها تفيض عن الحاجة ويظل منها ما قيمته ٢ مليون جنيه بعد المعارك.

وبعد هزيمة الثورة ينجح النديم في الاختفاء ويجن جنون جنود الاحتلال وعسس الخديوي، فيقلبون الأرض بحثًا عنه ويرصدون مكافأة ضخمة لمن يدل عليه (١٠٠٠ جنيه)، ولكن النديم كان مثقفًا وثائرًا شعبيًا، فإن الشعب كان يحميه ويتعالى على المكافآت، ويقدم له الشعب المأوى والطعام والحماية لمدة تسع سنوات كاملة، وكأن الجماهير تريد أن تقول له أن المثقف الذي يضع ثقافته في خدمة الشعب، فإن الشعب يفهم هذا، الجماهير التي ربما باتت بغير عشاء أو حتى لم تر الجنيه في حياتها ترفض إغراء الألف جنيه وتتعالى عليه، بل وتعرض نفسها للخطر من أجل حماية النديم، أليس مطلوبًا من جنود الاحتلال، ومن عسس الخديوي ؟.

أحب النديم الشعب فأحبه الشعب، وحماه بنور العين حتى أن الكثيرين التقوا بالنديم في تلك الفترة وعرفوه ترفعوا عن الصغائر، ولم يبلغوا عنه، بل ساعدوه على قدر الإمكان، بل أكثر من هذا كان بعض المسئولين في جهاز البوليس يتسترون على النديم إيمانًا بالإسلام والثورة وحبًا في النديم كإنسان أيضا، فمأمور مركز السنطة يقابل النديم وجهًا لوجه ولا يقبض عليه مخاطرا بوظيفته كمأمور، بل ويمنحه مالا من جيبه ليساعده في هروبه، وكاتب مركز السنطة أيضًا،- وكان النديم مختفيًا في قرية الجميزة مركز السنطة- يعرف أين يوجد النديم فيكتب إليه أبياتاً من الشعر تقول :

ولقد نذرت إذا لقيتك سالما ... لأقبلن مواطن الأقدام

ولأثنين على سجاياك التي ... حثت على التحرير والإقدام

هذه الأبيات توضح إلى أي مدى كانت الجماهير تحب النديم، ولعل تجربة التسع سنوات التي نجح الشعب فيها في إخفاء النديم عن عيون السلطة الاستعمارية والخديوي توضح إلى أي مدى كم هي عظيمة إمكانيات هذا الشعب، وإلى أي مدى كان هذا الشعب مستعدًا لتقديم كل شيء من أجل ابنه الفذ عبد الله النديم.

وبعد التسع سنوات يظهر النديم ثانية، وتسقط عنه العقوبة بالتقادم فلم يقل كفاني تعبًا وتشريدًا وثورة، بل يستمر دون كلل ولا ملل، فيعود من جديد يعمل من أجل الثورة، ويصدر مجلة الأستاذ ليهاجم فيها الإنجليز والخديوي وتتلقفها الأيدي وتنفد فور صدورها، وكلما زادت أعداد ما يطبع منها زاد إقبال الناس عليها، ليس هذا فحسب بل إن النديم يبدأ في بناء الخلايا الثورية ويجتمع سرًا مع الجيل الثاني ليسلم جذوة الثورة المشتعلة.

نعم يجتمع سرًا مع مصطفى كامل ومحمد فريد وينقل لهما خبراته الثورية ويعهد إليهما بمهمة استمرار الكفاح من أجل الاستقلال والحرية.

ومن الطبيعي أن تضيق به سلطات الاحتلال فتقوم بنفيه خارج مصر، فيذهب إلى حيث يلحق بأستاذه جمال الدين ليستمرا معًا في النضال إلى أن يموت النديم منفيًا في الآستانة .. كان النديم ثورة في كل يوم وكل ساعة وكل لحظة حتى الرمق الأخير.

النديم هو التجسيد الحقيقي للثورة الإسلامية، وهو الامتداد الطبيعي لمدرسة الأفغاني ، كان النديم كأستاذه يؤمن بضرورة إيقاظ المسلمين من الجمود والتخلف، وضرورة حثهم على مقاومة النفوذ الأجنبي والاستبداد.

كان النديم يؤمن بالحرية حتى آخر مدى، فهو يرفض أن يكون البرلمان مجرد واجهة أو مجرد شيء مقصور على الأغنياء والوجهاء، بل يريده برلمانًا يضم كل فئات الشعب.

ولأن النديم كان إسلاميًا ثوريًا فإنه انحاز إلى الفقراء والمستضعفين فدافع عن الفلاحين، وهاجم النفوذ الأجنبي والمرابين وكبار الملاك المستغلين للفلاح، بل وقدم رؤية قوية هامة في هذا الإطار ألا وهي أن ما يتمتع به الأغنياء هو من عرق الفلاحين وجهدهم، وفي الحقيقة فإنه هنا كان ينطلق من فهم إسلامي ناضج ويستند إلى التراث الإسلامي، أليس قول النديم هذا مستمدًا من قول الإمام علي ﷺ : « ما متع غني إلا بما حرم منه فقيرًا » ولأن النديم كان

يفهم الإسلام كما هو وليس على هواه أو هوي بعض المستفيدين أو الأغنياء، فإنه أدرك أن الفقراء هم الحليف الطبيعي للثورة الإسلامية، فقال: سأكون عصبة من الفقراء عندما وجد تردد الوجهاء والأعيان، والنديم هنا يستند إلى قول الله تعالى: ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ ، أليست تلك الآية الكريمة توضح أن الأراذل أو المستضعفين والفقراء هم جنود الرسل، وهم الحلفاء الطبيعيون لهم، لدرجة أن المعسكر المعادي للرسل ينعي عليهم عدم انضمام أحد إليهم إلا الأراذل؟ (الأراذل في مفهوم المستكبرين طبعًا) ولكنهم الأفاضل في مفهوم الإسلام.

كان النديم إسلاميًا وثوريًا وينطلق في انحيازه إلى الفقراء والمستضعفين من التراث الإسلامي والفهم الإسلامي، ولكن بعض الذين لا يريدون أن يفهموا الإسلام أو يفهموا النديم يريدون أن يخرجوا الرجل عن إطاره فيقولون أنه اشتراكي علمي - أو طوباوي — أو اشتراكي فأبي وغيرها من المصطلحات .

وبديهي أن الإسلام منحاز إلى المستضعفين، وإذا تشابه هذا مع أي من تلك المذاهب فهو مجرد تشابه في لون عيون شخصين لا يمتان لبعضهما بصلة، فالإسلام كان متميزًا ومستقلا وواضحًا وهو أسبق من كل تلك النظريات البشرية القاصرة .

كان النديم مثل الأفغاني، ومثل كل زعماء وجماهير الثورة العرابية يرى أن القضاء على النفوذ الأجنبي هو أهم الأهداف إن لم يكن الهدف الوحيد، وكان النديم يفهم المسألة في إطارها الطبيعي،كان يدرك أن الصراع بين الحضارة العربية والصليبية الأوربية صراع مستمر في الزمان والمكان، ولذلك نجد النديم يصف الغزو البريطاني لمصر سنة ١٨٨٢ م بأنه غزو صليبي وكان يحرض الجماهير من خلال هذا المنظور على مواجهة الغزو .

ليس هذا فحسب بل قبل الغزو البريطاني كان النديم ينبه الأذهان إلى المطامع الأوروبية المنطلقة من الحقد الصليبي، كان يهاجم النفوذ المالي الأوروبي عن طريق البنوك والربا والقروض، وكان يهاجم امتلاك الأجانب للمشروعات والوظائف، بل وكان يهاجم الاختراق الأخلاقي والثقافي الأجنبي لبلادنا، كان يهاجم القروض والإسراف والسفه

والمرابين وبنوك المال الأوروبية، ويهاجم أيضا ما نشروه من خمارات ودعارات وقمار لأنه كان يفهم المسألة على أنها غزو حضاري سياسي واقتصادي وثقافي وأخلاقي.

وبسبب هذا اتهمه صابونجي وبلنت ورفعت السعيد بأنه مصاب بالتعصب الديني، وهذه تهمة لا تستند على حقيقة اللهم إلا أن الغرب ومدارسه الثقافية ترى كل من يدافع عن بلاده ويكشف مطامع الغرب فيها بأنه مصاب بالتعصب الديني، كان النديم صادقًا مع نفسه فرأى الأشياء على طبيعتها رآها غزوًا صليبيا وصراعًا حضاريا فوصفها كما رآها، فوصفوه بالتعصب الديني وهو أبعد ما يكون عن التعصب لأن المسلم بحكم دينه وتراثه لم ولن يكون متعصبًا.

والنديم متهم عند صلاح عيسى بأنه نشر الهوس الديني لأنه كان يصف الأشياء كما رآها وكما هي حقيقتها، هل كان عليه أن يكذب ؟ حتى لا يصبح متعصبًا وغير ناشر للهوس الديني مثلا.

والنديم أيضا متهم عند صلاح عيسى بأنه أخطأ عندما استخدم الدعاية الدينية وحدها في تعبئة الجماهير، وهل كانت وما زالت الجماهير تفهم إلا هذه اللغة ؟، وهل تتحرك الجماهير إلا من خلال الإسلام ؟، وهل يتكلم النديم بلغة لا يفهمها هو ولا تفهمها الجماهير أيضا ؟.

كان النديم جماهيريًا فكان إسلاميا، وكانت الجماهير وما زالت لا تتحرك إلا من خلال الأيديولوجية الإسلامية، وكان الصراع في جوهره صراعًا إسلاميًا صليبيًا، ولهذا كله استخدم النديم اللغة الوحيدة التي تعبر عن المسألة بصدق ولا تتجاهل الواقع ولا تتعالى على الجماهير.

رفاعة الطهطاوي

مثقف السلطة

رفاعة الطهطاوي هو نموذج كامل للمثقف المرتبط بالسلطة، يخرج من عباءتها ويخوض معاركها ويبرر لها ويستفيد من علاقته بها وهو لا يرتبط بالجماهير ولا يعرف عنها شيئًا، والجماهير بدورها لا تعرف عنه شيئًا ولا تصل إليها ثماره الفكرية، ولا تقتنع بها ولا تتأثر بشيء منها، وتظل الثقافة السلطوية التي يمثلها رفاعة الطهطاوي حبيسة صالونات السلطة أو دواوينها.

ولد رفاعة الطهطاوي في مدينة جرجا بصعيد مصر سنة ١٨٠١ م من أسرة فقيرة، حفظ القرآن في الكتاب، ثمّ التحق بالأزهر وقضى به ثمان سنوات بين دارس ومدرس، ثم عين واعظًا وإمامًا في الجيش المصري النظامي الذي أسسه محمد علي، ولما جاء عهد البعثات العلمية التي أرسلها محمد على باشا إلى أوروبا تم اختيار رفاعة الطهطاوي إمامًا للبعثة الأولى، فهو لم يكن مرسلا إلا بصفته واعظًا وإمامًا للطلاب وفي أثناء تلك البعثة استطاع أن يطلع ويدرس عددًا كبيرًا من العلوم الفرنسية والآداب الأوروبية والمذاهب السياسية والاجتماعية التي كانت تعج بها باريس، وبعد ست سنوات كاملة في فرنسا عاد رفاعة الطهطاوي إلى مصر سنة ١٨٣١، حيث عمل في خدمة كل من محمد علي وسعيد وإسماعيل إلى أن توفي سنة ١٨٧٣ .

ويعد كتاب (تخليص الإبريز في تلخيص باريز) وكتاب (مناهج الألباب المصرية في مباهج الألباب العصرية) أهم أعماله وآثاره الفكرية، ويري كثير من المثقفين المغتربين أن رفاعة الطهطاوي هو رائد التنوير في الفكر المصري المعاصر، فالدكتور لويس عوض مثلا يفرد له فصلين في كتابه الفكر المصري الحديث تحت عنوان « رفاعة العظيم » والدكتور رفعت السعيد يفرد فصلين كاملين أيضا عن رفاعة الطهطاوي في كتابه تاريخ الفكر الاشتراكي في مصر، الفصل الأول تحت عنوان الطهطاوي بستاني يغرس أزهارًا، والفصل الثاني تحت عنوان ولكن الأزهار لم تتفتح ولكنه لم يتساءل لماذا لم تتفتح تلك الأزهار.

وفي الحقيقة فإن هذه المسألة، أي عدم تفتح تلك الأزهار بفرض أنها كانت أزهارا هي جوهر الأزمة في رؤية المثقفين المغتربين للطهطاوي، وفي فكر وثقافة الطهطاوي نفسه.

لو فكر هؤلاء قليلا في المسألة لاكتشفوا الحقيقة الكاملة أنهم كانوا مخطئين حينما جعلوا الطهطاوي رائدًا للتنوير أو رائدًا للفكر الاشتراكي أو رائدًا لأي ثقافة على الإطلاق، إذ لو كان شيئًا من هذا لتفتحت الأزهار.

والحقيقة أن رفاعة الطهطاوي كان موظفًا يعمل في دائرة الثقافة أو التعليم التابعة لجهاز السلطة، ولم يخرج عن هذا الإطار أبدًا، كان هو كاتب السلطة ولسان السلطة يكتب من خلال كونه موظفًا لا أكثر ولا أقل، فإذا أرادت السلطة أن يروج الفكر الليبرالي تجده جاهزًا لهذا، وإذا أرادت أن يروج لفكر يعبر عن سيطرة الدولة على الإنتاج كما في عهد محمد علي نجد الطهطاوي يفعل هذا، وإذا دخلت السلطة السياسية في مصر في معارك مع السلطان العثماني لانتزاع فرمان يزيد سلطتها في مصر تجد الطهطاوي يكتب عن أمجاد المصريين القدماء لتدعيم هذا المطلب تجاه الجماهير التي كانت متشربة بروح الخلافة الإسلامية حتى النخاع.

ولو نظرنا مثلا إلى الثورة العرابية باعتبارها تمثل أقصى حالات المد الجماهيري في ذلك الوقت، لوجدناها استمدت زادها الفكري والثقافي من الأفغاني والنديم، ولم نجد أي أثر لفكر الطهطاوي يظهر في الثورة أو من خلالها، وهذا أيضا دليل جديد على أن ثقافة الطهطاوي لم تخرج عن دائرة قصور السلطة السياسية ولم تصل يومًا إلى الشعب بعكس الأفغاني والنديم، وهل يمكن اعتبار ثقافة لم يحس بها أحد في إطار ثورة كالثورة العرابية ؟ هل يمكن اعتبار هذه ثقافة تنوير؟.

ولكن لماذا هذا الإصرار من قبل المثقفين المغتربين على إبراز والاهتمام بالطهطاوي ؟ هل يرجع ذلك إلى أن ثقافة الاغتراب هي في حد ذاتها ثقافة سلطوية ومدفوعة الأجر تعمل لخدمة السلطة وبالتالي فهي تتجاهل الثقافة الشعبية أو تكيد لها وتحاول إبراز ثقافة مثل ثقافة الطهطاوي، أم أن ذلك يرجع إلى قصور في النظر أو عدم إلمامها بكل جوانب الموضوع وقطع الأشياء عن ظروفها الموضوعية أم خليط من كل هذا ؟.

على كل حال فمن المضحك مثلا أن يعتبر لويس عوض مثلا أن الطهطاوي كان رائد الفكر الليبرالي في حين يعتبره رفعت السعيد رائدًا للفكر الاشتراكي مع التناقض في المذهبين والفكرين، لو أمعن كليهما أو أحدهما النظر لعرف أن ما جاء من أفكار اشتراكية في كتابات الطهطاوي كانت مجرد تبرير ودعاية لنظام الاحتكار والسيطرة على كل أشكال ووسائل الإنتاج في عهد محمد علي، وأن ما جاء من أفكار ليبرالية في كتابات الطهطاوي كانت إما موجهة لانتقاد السلطان العثماني لخدمة محمد علي أو إسماعيل أو موجهة لخدمة المشروع الذي يريد إسماعيل تنفيذه في مصر تقليدًا لأوروبا، وطبعًا بشروطه ولصالحه هو.

والأعجب من هذا أن البعض يدعي أن الطهطاوي كان رائدًا للقومية المصرية لأنه تحدث عن أمجاد الفراعنة وحضارة مصر القديمة، ويتناسى هذا البعض أن ذلك كان لحساب السلطة السياسية التي تريد الاستقلال بالسلطة في مصر عن الخلافة العثمانية بدعم كامل من الغرب وخاصة إنجلترا وفرنسا، ولو كان الطهطاوي رائدًا للقومية المصرية لكان من الصحيح أيضا أن القومية المصرية نشأت في أحضان السلطة وبتشجيع كامل من الغرب الاستعماري وخاصة فرنسا وإنجلترا.

وعلي أي حال فإن الطهطاوي مثلا تجاهل مسألة النفوذ الأجنبي في مصر ولم يشر إليه من قريب أو بعيد لأن السلطة السياسية التي يعمل لحسابها لم تكن تريد ذلك اللهم إلا في إطار بعض التناقضات الثانوية، وهذا يوضح الفرق الكبير بين النديم كمثقف شعبي منحاز إلى قضايا الجماهير، وبالتالي كان التخلص من النفوذ الأجنبي على رأس اهتماماته لأنه كان على رأس اهتمامات الجماهير.

ولعل الأستاذ طارق البشري قد أصاب كبد الحقيقة عندما قال : وآية ذلك أن رفاعة في « تخليص الإبريز في تلخيص باريز» لم يهتم كثيرًا بالنظام الاقتصادي في أوروبا لأن الليبرالية الاقتصادية الأوروبية كانت على طرف نقيض مع نظام محمد علي الاقتصادي القائم على الاحتكار، فقصر جهده وقتها في الحديث عن الليبرالية السياسية التي تشكل في الأساس تحديًا للسلطان العثماني، وعلى عكس ذلك فعل الطهطاوي في ١٨٦٩ م في كتابه « مناهج الألباب » فركز اهتمامه في الاقتصاد ولم يهتم بالنظام السياسي إذ كان احتكار محمد علي قد

تفكك من نحو ثلاثين عامًا وكان النظام السياسي بمصر قد استقر في الأسرة الخديوية العلوية فتخلى رفاعة عن كثير من الليبرالية السياسية وأسقط عن رئيس الدولة مسئوليته الدستورية إلا أمام ضميره وربه والتاريخ، أما أمام الرأي العام فبالنصح فقط»[1] .

كان الطهطاوي موظفًا في جهاز السلطة التعليمي والثقافي، وقد خدم السلطة في هذا الإطار بحماس، وحصل على المقابل بسخاء، فعلى حين أنه بدأ حياته معدمًا فقيرًا لدرجة أن الرافعي في ترجمته له ص ٤٣٠ من كتاب عصر محمد علي يقول عنه: « كان الطهطاوي إلى ذلك الحين فقيرًا رقيق الحال إذ كانت والدته تنفق عليه مما تبيعه من الحلي والعقار، وكان يستعين على معاشه بإعطاء دروس لأنجال الوجهاء » نجد أنه مات وقد ترك لورثته ٢٥٠٠ فدان عدا المباني والعقارات (وفقًا لعلي مبارك في كتابه الخطط الجديدة).

إذا فقد خدم الطهطاوي السلطة واستطاع أن يحصل في المقابل على إنعامات وهدايا ومرتبات تسمح له بتكوين ثروة من ٢٥٠٠ فدان، وقارن هذا بالنديم الذي مات منفيًا لا يملك ثمن كفنه.

وكل ما سبق لا يوحي بأن الطهطاوي كان رجلا غير شريف أو مرتش أو خلو من الكفاءات، ولكن المسألة أنه عمل كموظف وأخلص لوظيفته ولم يفهم الثقافة هنا كرسالة أو مهمة تنويرية أو غيرها، وإنما فهمها كوسيلة للترقي وزيادة الإنعامات والمرتبات وكان في ذلك نموذجًا لعدد كبير ممن دخلوا سلك الوظائف المدنية أو العسكرية من أجل تحسين أوضاعهم الاقتصادية، والطهطاوي كان من هؤلاء، وقد دخل في خدمة جهاز الدولة الثقافي ونبغ في هذا الإطار لا أكثر ولا أقل، بل هو أيضا لم يتخل عن ثقافته الإسلامية التي حصل عليها في الأزهر، بل وكان فقيهًا متميزًا وموسوعيًا إلا أنه أيضا استفاد بتلك الثقافة الأزهرية في الدعوة إلى سياسات النظام والسلطة ومحاولة جعلها تتفق مع التراث الإسلامي أو على الأقل لا تخرج عن إطار هذا التراث، بل لا مانع أيضا أن يحاول الطهطاوي خدمة قضايا التراث الإسلامي بما لا يضر السلطة ولا يتعارض معها.

---

(١) طارق البشري- المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية، دار الشروق ص ٢٧٠.

هذا هو الإطار الحقيقي لفهم الطهطاوي، وأي خروج به عن إطار الموظف يوقع في مجموعة من الأخطاء المنهجية والثقافية والتاريخية ويجعل المسألة مجردة من الموضوعية، بل تصبح افتئاتا على الرجل وعلى الثقافة.

الأزهري الثائر

الشيخ علي الغاياتي

الشيخ علي الغاياتي هو واحد من ذلك الجيل من المجاهدين الإسلاميين الذين تخرجوا من مدرسة الحزب الوطني أمثال مصطفي كامل، محمد فريد، عبد العزيز جاويش، إبراهيم الورداني، وهو ذلك الجيل الذي حمل شعلة النضال الإسلامي الوطني في بداية هذا القرن، ويعتبر حلقة الوصل بين الأفغاني والنديم وبين حسن البنا، وهذا الجيل هو الذي أعد العدة للثورة التي اندلعت بعد ذلك سنة ١٩١٩ م [١].

الشيخ علي الغاياتي عالم دين مناضل، وهو نموذج للأزهري الثائر الذي يضطلع بدور رجل الدين الإسلامي الحقيقي في الكفاح ضد الاستعمار والاستبداد وتبنى مطالب الأمة والدفاع عن قضاياها، وهو أيضًا الشاعر الملهم الذي يفيض قلمه رقة وعذوبة، وإلى جانب الرقة والعذوبة يتقد حماسًا ووطنية، وهو الصحفي القدير الذي يحرر المقالات ويصدر الصحف المتميزة والملتزمة بقضايا الشعب بكبرياء الإيمان والثورة ولا يمد يده إلى أحد أو يبيع قلمه إلى جهة رغم قسوة الظروف .

مولده وحياته :

ولد الشيخ علي الغاياتي في ٢٤ أكتوبر ١٨٨٥ بمدينة دمياط، ودخل الكتاب مبكرًا فأتم حفظ القرآن الكريم وهو في الثامنة من عمره وينحدر نسبه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم.

التحق علي الغاياتي بالمعهد الديني بدمياط، ثم التحق بالأزهر الشريف وانخرط في القاهرة في الصحافة الوطنية التابعة للحزب الوطني وفي النضال الوطني عمومًا ضد الاحتلال الإنجليزي والاستبداد الخديوي، حيث تعرض للاضطهاد مرارًا، وعندما أصدر ديوانه الشعري الأول تحت عنوان « وطنيتي » والذي قدم له كل من محمد فريد، وعبد العزيز

---

(١) د. ضياء الدين الريس، الحزب الوطني والنضال السري، الهيئة المصرية للكتاب.

جاويش، وهو ديوان يحمل قصائد شعرية تبث الروح الوطنية وتنعي على الاحتلال والخديوي، عندما أصدر هذا الديوان قامت الحكومة المصرية بمصادرته وتحويل الغاياتي ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش إلى المحاكمة[1]، فاضطر علي الغاياتي إلى الفرار إلى تركيا سنة ١٩١٠، ثم منها إلى جنيف حيث استقر هناك واستمر يواصل نضاله الوطني وأصدر صحيفة منبر الشرق التي اهتمت بشئون العالم الإسلامي ونضاله ضد الاستعمار.

وقد ظل الغاياتي يصدر هذه الصحيفة بانتظام رغم الظروف الصعبة من ٥ فبراير ١٩٢٢ حتى سنة ١٩٣٧، حيث عاد إلى مصر ونقل جريدته معه، واستمر في إصدارها دفاعًا عن القضية الوطنية المصرية، وتوفي الرجل في ٢٧ أغسطس سنة ١٩٥٦.

نضاله الوطني:

نشأ الغاياتي في ظروف تاريخية معقدة، حيث كانت مصر قد وقعت في قبضة الاحتلال الإنجليزي سنة ١٨٨٢ م، وكانت الحركة الوطنية المصرية متمثلة في الحزب الوطني تحاول بعث الروح الوطنية واستنهاض الشعب المصري ضد الاحتلال، وكان من الطبيعي أن يحدث صدام واضطهاد من سلطات الاحتلال الإنجليزي وسلطات الخديوي ضد عناصر الحركة الوطنية المصرية.

نشأ الغاياتي في هذه الظروف في مدينة دمياط، وكان طالبًا بالمعهد الديني بها اصطدم بإدارة المعهد حيث تم فصله بسبب نشاطه الوطني، فاضطر للعمل مدرسًا بالمدارس الابتدائية الخاصة [2].

وعندما انتقل إلى القاهرة شارك بحماس في العمل الوطني من خلال الحزب الوطني، الذي كان يعد في ذلك الوقت لإشعال الثورة ضد الاحتلال [3]، وأخذ الغاياتي ينظم القصائد

---

(١) صدرت الأحكام بسبب هذا الديوان على كل من محمد فريد وعبد العزيز جاويش وعلي الغاياتي، فصدر الحكم على محمد فريد بالحبس ستة أشهر مع النفاذ، وعلى عبد العزيز جاويش بالحبس ثلاثة أشهر، وعلى الشيخ علي الغاياتي بالحبس سنة مع الشغل.

(٢) محمد طاهر الجبلاوي، خمسة من شعراء الوطنية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣.

(٣) عبد الرحمن الرافعي، محمد فريد، دار المعارف.

الشعرية الملتهبة التي تحض على الوطنية والجهاد ومناهضة الاستعمار وبث العزيمة والحماس في صفوف الجماهير، وقام بنشر هذه القصائد في صحف الحزب الوطني التي كانت تصدر في ذلك الوقت، كما قام بنشر العديد من المقالات في مختلف الصحف المصرية مثل جريدة الجوائب المصرية، اللواء وغيرهما [١]، مما أثار حفيظة السلطات الإنجليزية والخديوي عليه، فقامت السلطات بزجه في السجن بتهمة مخالفة قانون التجنيد « سجن القشلاق الأحمر »، ولكن هذا الأمر لم يغير من موقف وصلابة الرجل فاستمر على نفس الخط الوطني النضالي بل تصاعدت نبرته الوطنية والنضالية المناهضة للاحتلال فقام بجمع القصائد التي نشرها من قبل، وأصدرها في ديوان تحت عنوان « وطنيتي » سنة ١٩١٠م، وقام كل من محمد فريد وعبد العزيز بكتابة مقدمة لهذا الديوان، إلا أن السلطات رأت أن هذا الديوان ليس مجرد قصائد شعرية بل شواظ من نار وقذائف تتلظى وقذائف على رأس الاستعمار [٢]، فقامت بتحويل كل من محمد فريد، وعبد العزيز جاويش، وعلي الغاياتي إلى المحاكمة وأحس الغاياتي أن السلطات تتربص به، وأنها لا محالة سوف تسجنه خاصة وأنها تسيطر على القضاء عن طريق القضاة الأجانب، فقام بالتنكر في زي أفندي وكان قبل ذلك يلبس الملابس الأزهرية دائما وسافر إلى تركيا.

وبعد سفره صدر الحكم من المحكمة بحبسه عامًا مع الشغل، وكان الحكم غيابيًا بالطبع، كما صدرت الأحكام بحق كل من محمد فريد وعبد العزيز جاويش الأول الحبس ستة أشهر مع النفاذ والثاني الحبس ثلاثة أشهر، وقد نفذ محمد فريد الحكم كاملاً ولبث في السجن ستة شهور كاملة.

ما إن وصل علي الغاياتي إلى تركيا حتى واصل الاتصال بزملائه في الحركة الوطنية المصرية داخل وخارج مصر واستمر يكتب المقالات في الصحف التركية والأوروبية دفاعًا عن قضية بلاده، كما راسل العديد من الصحف المصرية، ثم انتقل إلى جنيف سنة ١٩١١ م،

---

(١)د. إبراهيم عبد الله المسلمي، علي الغاياتي من وطنيتي على منبر الشرق، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٩ م.

(٢)فتحي رضوان (عصر ورجال)، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٦٧م

حيث استقر هناك مواصلا نضاله في المنفى، وفي أعقاب ثورة ١٩١٩ م أصدر الشيخ علي الغاياتي سنة ١٩٢٢م صحيفة منبر الشرق، وهي من أهم الصحف التي أصدرها الرجل حيث تواصلت بدون انقطاع في المنفي حتى عام ١٩٣٣ م، ثم عاد بها إلى مصر مع عودته سنة ١٩٣٧م، واستمر يصدرها إلى أن توفي عام ١٩٥٦ م.

ولم تكن جريدة منبر الشرق في سنوات المنفي مجرد صحيفة تنشر أخبار الوطن المصري والعربي والإسلامي، وتدافع عن حقوق المصريين والعرب والمسلمين والشرقيين عمومًا، بل كانت منتدى لزعماء هذه الأمة كلها[١].

أما في مصر فقد استمرت جريدة منبر الشرق تناهض الاحتلال وتدعو إلى الحرية، واتخذت طريقًا مستقلاً فلم ترتبط بأحد الأحزاب المصرية في تلك الفترة، وخرجت صحيفة نظيفة نقية من كل خطأ وترتفع فوق كل شائبة وتدعو في أدب واتئاد إلى كل فضيلة[٢].

(١ ، ٢) نفس المرجع السابق.

الشيخ محمود خطاب السبكي

مؤسس الجمعيــة الشرعيــة

فكــره و ممارســاتــه السياسيــة

حياتـــه:

ولد الشيخ محمود خطاب السبكي في أول يوليو ١٨٥٨ م وقد تـوفي في ٧ يوليـو ١٩٣٣ عن عمر يناهز ٧٥ عامًا.

ولد الشيخ الإمام في قرية سبك الأحد(١) محافظة المنوفية، وحفظ القرآن في كتاب القريـة، وعمل في كثير من أعمال والده في البداية مثـل رعـي الغـنم وسياسـة الخيـل ونبـغ في صـيد الأسماك والطيور، كما اهتم بتعلم الفروسية وتدرب علـى السـلاح مثـل الرمـي بالبندقيـة، وظلت الرماية من أحب الهوايات إليه حتى آخر حياته(٢)، وظل يمارس الزراعة والرعي فـترة من حياته حتى حدث التحول الكبير الذي أدى به إلى طلب العلم في الأزهر في سـنة ١٢٩٧ هـ أي بعد أن وصل إلى سن كبيرة نسبيًا حوالي ٢٣ عامًا ، وظل يحصل العلوم الشرعية على مذهب الإمام مالك، وحصل على العالمية سنة ١٨٩٦ م ـ ١٣١٣ هـ، وأخذ يلقي الـدروس بالأزهر الشريف في علوم الفقه والتفسير والحديث، ومن أهم مؤلفات الشـيخ كتـاب الـدين الخالص، وكتاب شرح سنن أبي داوود.

وتعد أهم أعمال الشيخ هو تأسيس الجمعية الشرعية في سنة ١٣٣١ هـ – ١٩١٢ م، وقد ترأس الشيخ هذه الجمعية حتى وفاته(٣).

---

(١)في خرائط المساحة اسمها سبك الأحد وحصتها وكفر العويضات وكفر الرازقة، وهي قرية تابعة لمحافظة المنوفية.

(٢)أعذب المسالك المحمودية، محمود خطاب السبكي، رسالة لم تطبع.

(٣)تعد الجمعية الشرعية أهم التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية، حيث استطاعت أن تضم الملايين إلى عضويتها، وأن تنشأ وتدير آلاف المساجد ومئات المستشفيات والمستوصفات والمدارس ودور رعاية الأيتام والأسر المنتجة وغيرها.

نضاله ضد الاستعمار الانجليزي:

عاش الشيخ فترة الشباب والرجولة والكهولة تحت حكم الاستعمار الإنجليزي لمصر، وكان من الطبيعي أن يصطدم الشيخ بسلطات الاحتلال الإنجليزي نظرًا لأن النشاط الديني للشيخ كان يحمل في طياته نشاطًا سياسيًا ظاهرًا أو باطنًا، فإنشاء الشيخ لجمعية إسلامية تنظم شئون الأعضاء وترعاهم وتحقق نوعًا من التكافل بينهم هو في ذاته تقوية للتماسك الاجتماعي المصري ضد الاحتلال، وكذلك دعوة الشيخ إلى التميز في السلوك والزي والأخلاق والتمسك في ذلك كله بشرائع الإسلام الحنيفية يحمل في طياته دعوة لمقاطعة ورفض القيم والسلوك الغربي عمومًا والإنجليزي خصوصًا، ولا شك أن التميز في السلوك والزي والأخلاق وغيرها إحدي وسائل الصمود أمام الاستعمار الذي يستهدف دائمًا تدمير السلوك والزي والأخلاق الوطنية باعتبارها أحد وسائل رفض الاستعمار، وإحدي وسائل منع الاستعمار من تحقيق أهدافه وتسريب قيمه وجعله مقبولاً من الشعب وتقليل هامش الرفض الشعبي له، وعلى كل حال فلم تقتصر المسألة على هذا الجانب غير المباشر من النضال بل تعداه إلى الجانب المباشر، فالشيخ محمود خطاب السبكي دعا إلى مقاطعة المنسوجات والبضائع الإنجليزية، بل قام بإنشاء بعض معامل النسيج لكي يعطي البديل المتاح وهو المنسوجات المصرية، والشيخ هنا يمارس سلاح المقاطعة الاقتصادية، ولا شك أن ذلك السلاح من أهم أسلحة الشعوب في مواجهة الاستعمار الذي يحرص على جعل المستعمرات سوقًا لمنتجاته .

ووفقًا لسجل محاضر جلسات مجلس إدارة الجمعية[1]، فإن شهرة المنسوجات التي أنتجتها المعامل التابعة للجمعية أدت إلى أن اقترحت مصلحة الصناعة والتجارة أن توافي المصانع والمعارض التابعة للجمعية القناصل المصرية في الخارج بعينات من مصنوعاتها المختلفة مع بيان مقاساتها وأثمانها وعناوين تلك المؤسسات القائمة بهذا النوع من النشاط الصناعي، وبالفعل أرسلت المؤسسات التابعة للجمعية العينات المطلوبة.

---

(١) سنجل محاضر جلسات مجلس إدارة الجمعية الشرعية هذا ص ١٩٤٠

وهكذا قام الرجل بعمليتين في وقت واحد، فهو استخدم سلاح المقاطعة، وقام ببناء صناعة وطنية في نفس الوقت، والعجيب أنه استهدف التصدير أي ليس فقط محاربة الإنجليز اقتصاديًا في مصر، بل وخارجها أيضًا.

وفي هذا الإطار أيضًا كان الشيخ ينشر الآراء والأفكار والمحاضرات التي تحض على محاربة الإنجليز، ففي كتاب الدين الخالص[1]:« إن المسلمين الآن تحت سيطرة الاستعمار لأنهم لم يقيموا الدين كما أمروا فلم يتخلوا عن النواهي، ولم يتحلوا بالأوامر، بل أفرطوا في تقليد الأجنبي في الضار دون النافع، قلدوه في أكل الربا وشرب الخمر وإباحة الزنا والتبرج وخروج النساء واستحمامهن في البحار، قلدوهم في الحكم بالقانون الوضعي ونبذ القانون السماوي ولم يرتدعوا بقوله تعالى: ﴿ **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ وتركوا ما أمرهم مولاهم به بقوله: ﴿ **وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ** ﴾ فخذلهم الله وسلط عليهم من لا يرحمهم لأنهم تركوا الدين وراء الظهر فتركوا إلى الذل والهوان، وذلك لأن الانتصار على الأجنبي خاص بمن نصر دين الله وتمسك به وسلك طريق النبي ﷺ ، قال الله تعالى: ﴿ **إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ** ﴾ وقوله تعالى: ﴿ **إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ** ﴾ فنصر الدين من الإيمان ومن نصره نصره الله في الدنيا والآخرة، ومن لم ينصره فقد باء بالخزي والذل والهوان في الدارين».

والشيخ السبكي في هذا الكلام يحدد أسباب القابلية للاستعمار داخلنا ويحاصرها ويدعوا إلى الإقلاع عنها ثم هو يحدد طريق مقاومة الاستعمار بإعداد القوة اللازمة والممكنة وبالتمسك بالإيمان.

وعلى الجانب الآخر فإن الإنجليز أحسوا بخطورة الشيخ ففرضت سلطات الاحتلال الإنجليزي رقابة على دروس الشيخ وعلى ما يصله من رسائل، ويبدوا أنهم اكتشفوا أن هناك حركة لاشتعال الثورة يشارك فيها الشيخ بالاتصال بالعثمانيين، لذلك بادرت سلطات

(١) الدين الخالص جـ ٥ ص ٢١٧ ـ ٢١٨.

الاحتلال إلى اعتقال الشيخ الإمام سنة ١٩١٤، وتم تفتيش منزله ومنزل أسرته، وقد تم إيداع الشيخ بسجن باب الخلق لمدة ثلاثة أشهر مارس خلالها الشيخ أسلوب الإضراب عن الطعام للضغط على الإنجليز والسلطات للسماح له بزيارات الأهل، ثم أفرج عنه إلا أنه حرم من مزاولة النشاط طوال فترة الحرب العالمية أي من ١٩١٤ ـ ١٩١٨، وفي محاضر الجلسات الخاصة بالجمعية توقفت تلك المحاضر بين سنتي ١٢٣٢ هـ ـ ١٢٣٦ هـ، ولم يسمح ببيان أسباب هذا التوقف[١].

ومن الآثار الهامة للجمعية الشرعية، أن الكثيرين من مناضلي ثورة ١٩١٩، ومن أعضاء المنظمات السرية المسلحة في ذلك الوقت كانوا أصلاً أعضاء في الجمعية الشرعية، مما يدل على مدى التأثير النضالي للتربية من خلال الجمعية، أو يدل على أن الجمعية أصلاً كانت خالصة في تلك العمليات من خلال خلايا تابعة لها، يقول الأستاذ أحمد حسين مؤسس مصر الفتاة: « إن زعماء في ورش وعنابر السكة الحديد سنة ١٩١٩ كانوا أعضاء في الجمعية الشرعية، وكذلك كان عدد من المتهمين في حادث مقتل السير لي ستاك وعشرات الإنجليز من قبله كانوا أيضًا أعضاء في الجمعية الشرعية، وعلى رأس هؤلاء الشيخ أحمد جاد وهو زعيم عمالي وشخصية هامة من الشخصيات التي اتخذت طريق الكفاح المسلح، وقد صدر حكم الإعدام على الشيخ أحمد جاد الله مع زعماء الثورة » [٢].

تفكير نقابي مبكر:

يقول د. عبد العظيم حامد خطاب: « نشأ التفكير في إنشاء جمعية تضم العاملين بالسنة ليتكاتفوا ويتضامنوا لتأمين حياتهم ضد البطالة والعوز والحاجة، فكان أن وجدت الجمعية الشرعية لتعاون العاملين بالكتاب والسنة المحمدية في وقت لم تكن قوانين العمل تعطي العامل أي حق، ولم تكن نقابات أو هيئات تحفظ على العامل حقه أو تنصفه إذا ما التجاء إليها» [٣].

---

(١)عبد العظيم حامد خطاب، لمحات من تاريخ الإمام الشيخ محمود خطاب السبكي، دار الاعتصام، ١٩٨٥ م.

(٢)مقال في جريدة الاعتصام عدد ذي الحجة ١٣٩٥ هـ، وانظر كذلك محمود متولي، مصر وقضايا الاغتيالات السياسية، كتاب الحرية رقم (٦) ١٩٨٥

(٣)د. عبد العظيم حامد خطاب، مرجع سابق.

أليس هذا تفكيرًا مبكرًا في العمل النقابي، والنواة الأولى للنقابات العمالية والمهنيـة؟.

المؤسســسـات البديلــة:

وعى الشيخ السبكي إلى ضرورة إقامة مؤسسات بديلة وموازيـة للمؤسسـات الحكوميـة التابعة لسلطات الاحتلال، وخاصة في مجالي الاقتصاد والقانون باعتبـارهم أهـم مجـالين مـن مجالات الممارسات التابعة للاحتلال والمحققة لأهداف هذا الاحـتلال، وفي إطـار المؤسسـات الاقتصادية قام الشيخ بعمل صـندوق خـاص يحفـظ مـوارد الجمعيـة واشـتراكات الأعضـاء واستثمار ذلك في مشروعات الجمعية، ونبه الشيخ الجمـاهير علـى ضـرورة مقاطعـة البنـوك الربوية.

وفي إطار الاهتمــام بالقضيـــة الفلسطينيـــة:

برغم أن الهجمة الاستعمارية الصهيونية على فلسطين كانت في بداياتها الأولى ولم يظهـر خطرها الكامل بعد في ذلك الوقت، إلا أن الشيخ السبكي وبـوعي متقـدم تنبـه إلى المخـاطر الحقيقيـة لتلـك الهجمـة الصـهيونية، وانطلاقـاً مـن واجبـه أدرك ضـرورة مسـاعدة الشـعب الفلسطيني فقامت الجمعية الشرعية بإرسال كمية من المنسوجات إلى بيـت القـدس لتوزيعهـا على منكوبي فلسطين، وتلقى مجلس إدارة الجمعيـة رسـالة محـررة في ١٧ رجـب ١٣٤٩ هـ الموافـق ٨ كـانون الأول (ديسـمبر) ١٩٣٠ م موقعًـا عليهـا مـن رئـيس المجلـس الشـرعي الإسلامي الأعلى بفلسطين وهو الشيخ محمـد أمـين الحسـيني يشـكر الجمعيـة علـى تبرعهـا وتضامنها مع الشعب الفلسطيني[1]، وفي الأربعينيات فتحت الجمعيـة الشـرعية مجـال التـبرع لمساعدة الشـعب الفلسـطيني، وكـان أعضـاء الجمعيـة يحملـون الـدفاتر في الأمـاكن العامـة، وشاركت الجمعية في المظاهرات الصـاخبة الـتي شـهدتها القـاهرة عقـب الإعـلان عـن قيـام إسرائيل سنة ١٩٤٨م مع غيرها من الجمعيات الإسلامية .. المؤسسات القانونية دعـا الشـيخ إلى مقاطعة المحاكم الحكومية التي لا تطبق الشريعة الإسلامية وأنشأ من جانبه عددًا من المحاكم الأهلية، وقد نص قانون الجمعية الأول على أن يعاون مجلس الإدارة لجنتان: إحداهما: لجنـة

---

(١) د. عبد العظيم حامد خطاب، مرجع سابق.

المحكمين وتقوم هذه اللجنة بالتحكيم في المنازعات التي تنشأ بين الأعضاء أو الراغبين من الأهالي حتى لا يلجأ المسلمون إلى تحكيم القانون الوضعي في المحاكم وحتى تبقي الألفة بين المسلمين[1].

---

(١) د. عبد العظيم حامد خطاب، مرجع سابق.

الشيـخ محمد الغـزالي

(١٩١٧-١٩٩٦)

- **نشأته وحياته:**

شغل الشيخ محمد الغزالي حيزًا كبيرًا من الفعل على مستوى الحركة الإسلامية ، من حيث معاركها الفكرية والسياسية، بل وخلافاتها الداخلية أيضًا، و على مستوى أطروحاته المتميزة والتي تعكس روح البرنامج السياسي والاقتصادي والاجتماعي للحركة الإسلامية المعاصرة.

ولد الشيخ محمد الغزالي في قرية (نكلا العنب) بمحافظة البحيرة في ٢٢ أيلول (سبتمبر) سنة ١٩١٧، حيث حفظ القرآن الكريم في كتاب القرية وأكمل حفظه ولم يتم عشر سنوات من عمره، ثم تلقى تعليمه الابتدائي والثانوية في معهد الإسكندرية الديني، ثم التحق بكلية أصول الدين عام ١٩٣٧ وحصل منها على درجة العالمية سنة ١٩٤١، ثم حصل على إجازة الدعوة والإرشاد من كلية اللغة العربية سنة ١٩٤٣، وعمل واعظًا بالأزهر الشريف إلى أن أصبح مديرًا للدعوة والإرشاد سنة ١٩٧١ م.

اعتقل الشيخ محمد الغزالي مرتين : مرة في ١٩٤٩ م ثم مرة أخرى سنة ١٩٦٥ بسبب انتمائه لجماعة الإخوان المسلمين.

عمل الشيخ محمد الغزالي محاضرًا في عدد من الجامعات الإسلامية مثل الأزهر ـ جامعة أم القرى بمكة المكرمة، ثم رئيسًا للمجمع العلمي لجامعة الأمير عبد القادر الإسلامية في الجزائر.

ارتبط الشيخ محمد الغزالي منذ شبابه المبكر بجماعة الإخوان المسلمين حيث عاصر هذه الحركة منذ بداياتها الأولى ومارس النضال السياسي والفكري في عهد الملكية ثم عهد الجمهورية (عبد الناصر ـ السادات ـ حسني مبارك) .

وبقدر ما أثار الشيخ محمد الغزالي من قضايا حيوية من خلال مقالاته الكثيرة في الدوريات المختلفة أو من خلال محاضراته الهامة بقدر ما أثار من خلافات معه أو حوله أو ردود فعل مؤيدة أو معارضة، وهذا شأن أي مفكر يقرر أن يناقش القضايا الحية المطروحة على الساحة والتحديات التي تواجه الأمة الإسلامية ولا يلوذ بالقضايا الميتة أو التي لا رصيد لها في الواقع وهكذا فإن دراسة حياة الشيخ محمد الغزالي هي دراسة في الوقت نفسه لجزء هام من تاريخ الحركة الإسلامية في مصر وحركة الإخوان المسلمين خصوصًا بدءًا من الإمام الشهيد حسن البنا حتى الآن.

كان أفكار الشيخ الغزالي وكانت اجتهاداته الفقهية مرتبطة دائمًا بأحوال المسلمين في وقتها، سواء أصاب أم أخطأ فإنه اختار الطريق الصعب، ولم يتدثر بعباءة السكون والاكتفاء بطرح القضايا الكلية دون الخوض في الواقع الذي تعيشه الحركة الإسلامية أو الذي تعيشه جماهير المسلمين.

ففي مواجهة الأوضاع الاقتصادية المتردية والاجتماعية الظالمة التي كانت تعيشها مصر قبل ١٩٥٢ من رأسمالية زراعية بشعة وظلم مستمر للفلاحين والعمال وتفاوت طبقي رهيب كانت كلمات ومقالات ودراسات الشيخ محمد الغزالي التي تدافع عن حقوق الفلاحين الفقراء والعمال المطحونين في مواجهة الرأسمالية والملكية وهكذا جاءت دراساته الهامة مثل (الإسلام والأوضاع الاقتصادية - الإسلام المفترى عليه بين الرأسمالية والشيوعية).

وفي مواجهة الاستعمار الإنجليزي الجاثم على صدر مصر في ذلك الوقت والاستعمار عمومًا الجاثم على صدور جماهير الشعوب المستضعفة في العالم الثالث كان كتابه (الاستعمار أحقاد وأطماع).

وفي مرحلة الستينيات – حيث تزايد المد الاشتراكي في العالم الإسلامي – مع ما ارتبط به من قمع هائل للحركة الإسلامية جاءت دراسات الشيخ محمد الغزالي لتؤكد هوية الأمة، وأن خلاصها ليس إلا في الإسلام مثل كتابه: (الإسلام والمناهج الاشتراكية) وكذلك

مجموعة دراساته عن سيرة الرسول ﷺ أو دراساته التي تدعو إلى الصبر والصمود في مواجهة المحنة وتحدد أبعادها مثل (كيف نفهم الإسلام)، (من معالم الحق).

وفي المرحلة التالية حيث انتشرت مفاهيم القشرية والجمود والاهتمام بالقضايا الجانبية جاء كتابه الهام (السنة النبوية) الذي وصفه البعض بأنه بيروسترويكا إسلامية، وقد أثار هذا الكتاب ردود فعل حادة ومنتقدة لدى بعض قطاعات الحركة الإسلامية التي تميل إلى الأخذ بالأصعب والأشد في أمور الإسلام إلا أن ذلك لم يفت في عضد الشيخ بل زاده تصميمًا على خوض المعركة ضد الجمود والشكلية والاهتمام بالقضايا الجانبية على حساب القضايا الجوهرية للأمة.

وقد كان الشيخ محمد الغزالي دائمًا كمفكر يبادر إلى الرد على كل هؤلاء الذين يحاولون النيل من الإسلام كدين شامل أو يروجون للمذاهب المادية مثل الشيوعية وغيرها، فقد أصدر كتابه من هنا نعلم ردًا على الأستاذ خالد محمد خالد الذي حاول أن يدعي أنه لا سياسة في الدين ولا دولة في الإسلام في كتابه من هنا نبدأ وقد تراجع الأستاذ خالد محمد خالد عن هذه الأقوال فيما بعد، كما أصدر الشيخ محمد الغزالي كتابه (الإسلام في مواجهة الزحف الأحمر) كرد على الترويج للشيوعية في مصر والعالم الإسلامي.

وإذا حاولنا أن نكوّن رؤية في فكر الشيخ محمد الغزالي من خلال كتبه ودراساته المنشورة نجد أنه يميل دائمًا إلى فتح باب الاجتهاد والاهتمام بالقضايا الحيوية المطروحة، وينحاز صراحة إلى مدرسة الرأي في الفقه الإسلامي على اعتبار أن الفقه الإسلامي قد انقسم منذ البداية إلى مدرستين هما مدرسة الحديث ـ ومدرسة الرأي، وكان الغزالي يرى ضرورة التقريب بين المذاهب المختلفة ويرى أن التعصب هو نقيض التدين وأنه لم يكن من أخلاق مؤسسي المذاهب ذاتهم.

والشيخ الغزالي يربط الدعوة بالعمل الاجتماعي والسياسي عمومًا وهو يرى أن الحرية هي أهم مبادئ الإسلام، ومن هنا فإنه دائمًا يدافع عن الحريات باعتبار أن ذلك فريضة إسلامية وينعي على الاستبداد والمستبدين، ويرى أنهم أشد فتكًا وخطرًا على الإسلام من

الكفار، ومن النادر أن نجد مقالاً أو كتابًا يخلو من الهجوم على الاستبداد والمستبدين، وقد أفرد لهذا الموضوع دراسة خاصة هي:(الإسلام والاستبداد السياسي).

ويرى الشيخ محمد الغزالي أن العدل مع الكفر أدوم وأبقى من الإسلام مع الظلم وبداهة فإنه لا يتفق الإسلام مع الظلم، كما أن العدل لا ينبع إلا من الإسلام لأنه منهج الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه أو من خلفه، ولكن الشيخ محمد الغزالي يقصد أنه يرفض الاستبداد والظلم ولو كانت اللافتة المرفوعة هي لافتة الإسلام لأن الأمر هنا يكون كذبًا وادعاءً.

ويرى الشيخ محمد الغزالي أن على المسلم أن يناضل من أجل الحرية بأوسع مدلولاتها وأنه مع التعددية السياسية سواء في إطار الإسلام أو حتى في خارج الإطار،لأن الجماهير قادرة على لفظ كل ما هو غير إسلامي في حالة سيادة الحريات وفي جو الانفتاح الفكرى، وفي هذا الصدد يحرص الشيخ محمد الغزالي على التأكيد على حق تشكيل الأحزاب وغيرها من الحريات.

ولم تقتصر رؤية الشيخ محمد الغزالي على الحريات السياسية، بل دعا صراحة إلى ضرورة النضال من أجل الفقراء وضد كل ظلم اجتماعي أو اقتصادي، ويرى الشيخ محمد الغزالي أن المنهج الإسلامي هو منهج المستضعفين في مواجهة المستكبرين، وأن الإسلام يوفر حق الحياة الكريمة لكل إنسان بصرف النظر عن دينه أو جنسه أو لونه وأن على المسلم أن يعمل من أجل تعديل الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لصالح الفقراء والمستضعفين.

وينعي الشيخ محمد الغزالي دائمًا على القومية عمومًا والقومية العربية خصوصًا لأنها دعوة جاهلية من ناحية، ولأنها استنبات استعماري من ناحية ثانية، ولأنها تفرق المسلمين من ناحية ثالثة، وخاصة هؤلاء الذين يعيشون في البلاد العربية مثل البربر في المغرب العربي والزنوج في السودان والأكراد في العراق والنوبيين في مصر وغيرهم الذين لا يجمعهم إلا الإسلام وحده.

ولا يفتأ الغزالي في صراحة وشجاعة يقول: إن المسلمين حاليًا متخلفون ، وأن هذا يسيء إلى الإسلام ويسيء إلى المسلمين أنفسهم، وأنه يجب على كل مسلم أن يعمل بكد ودأب لتحصيل العلم والمعرفة والتفاني في عمله حتى لا نصاب بالمزيد من التخلف على اعتبار أن

التقدم العلمي والصناعي هو تراث إنساني وأن علينا أن نحوز فيه السبق لا أن نكتفي باستهلاك منتجات غيرنا أو فتات موائدهم العلمية والصناعية، وفي الوقت نفسه علينا أن ندرك أننا أمة صاحبة حضارة متميزة ومتفوقة وأخص ما ندعو إليه هو العلم والتعلم والإيجابية في الحياة الدنيا وتعميرها.

إذن فالشيخ محمد الغزالي يمثل مشروعًا فكريًا متكاملاً مستمدًا من الإسلام بصورة أصيلة وواعية ومجتهدة في نفس الوقت فهو يؤكد على تميزنا الحضاري ويتصدى لمحاولات التغريب والتذويب الحضاري الذي نتعرض له، وهو أيضًا يقدم برنامجًا اجتماعيًا وسياسيًا واقتصاديًا مستمدًا من الإسلام ومراعيًا ظروف الواقع الذي نعيشه في نفس الوقت.

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر فإن أكثر التهم والانتقادات التي وجهت وما زالت توجه إلى الحركة الإسلامية هو غياب برنامج تفصيلي لتلك الحركة وبالطبع فإن هذه التهمة باطلة من أساسها لأسباب كثيرة ليس هنا مجال مناقشتها وهي تهمة تستخدمها العلمانية لمجرد ذر الرماد في العيون، إلا أنه على كل حال فإن مواقف وكتابات الغزالي تشكل برنامجًا سياسيًا متكاملاً فهو قدم أطروحة حضارية ناقشت طبيعة مجتمعاتنا وطبيعة تركيبتها الحضارية والإنسانية، كما قدم أطروحة في الانتماء رافضا الانتماء القومي الضيق ومنحازًا إلى الانتماء العالمي كمسلمين وكأمة إسلامية تستوعب في داخلها بدون قهر أو تعصب وبمنتهى الاحترام وتأكيدًا لذاتية كل المذاهب والأديان والآراء الأخرى وعلى المستوى الاقتصادي قدم أطروحاته الاقتصادية التي ناقشت أوضاع المسلمين، وحددت طرق علاجها، بل وطرق التصدي للظلم الاقتصادي والتفاوت الطبقي، و على المستوى ذاته جاءت أطروحاته السياسية والاجتماعية والتربوية وإن مجرد قراءة في عناوين كتبه وأبحاثه ومقالات تعطيك برنامجًا متكاملاً، برنامجًا سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا ومن خلال مواقفه العلمية نجد أنه مارس النضال السياسى، دائما ضد الاستبداد، وضد الظلم الاقتصادى، وضد هؤلاء الذين حاولوا الإساءة إلى الإسلام أو رسول الإسلام محمدﷺ، ودفع الغزالي الثمن من حريته مرتين : مرة سنة ١٩٤٩ وأخرى سنة ١٩٦٥، ثم ثالثة حيث أجبر على الهجرة عام ١٩٧٣ بعد أحداث الكلية الفنية العسكرية (١٩٧٣).

كان الشيخ محمد الغزالي من أكثر الذين حرضوا الفلاحين للثورة ضد ظلم كبار ملاك الأراضي ودافع بعلمه ونفسه عن هؤلاء الفلاحين الذين انتفضوا ضد كبار ملاك الأراضي في كفور نجم وبهوت وميت فضالة وغيرها من قرى الريف المصري سنة ١٩٤٩ ـ ١٩٥١ م.

وقاد الشيخ محمد الغزالي المظاهرات من الأزهر الشريف ضد تطاول رسام الكاريكاتير المعروف (صلاح جاهين) على الرسول الأعظم محمد ﷺ وفضل الهجرة إلى خارج مصر، وبعد عودة الشيخ محمد الغزالي قاد الرجل بنفسه المظاهرات الأسبوعية التي كانت تخرج من مسجد الفسطاط بضاحية مصر القديمة حيث كان الشيخ الغزالي يخطب ضد كامب ديفيد أو المطالبة بتطبيق الشريعة الإسلامية أو التصدي لتغيير قانون الأحوال الشخصية بما يلائم هوى السيدة جيهان السادات حرم الرئيس المصري الراحل أنو السادات، ولم ينقطع الشيخ الغزالي عن حركته النضالية حتى بعد أن تم إبعاده قسرًا عن منبر مسجد الفسطاط في الثمانينيات وما زال ينتهز الفرصة للخطابة من خلال (صلاة العيد) في الخلاء أو خلال الدعوات التي تأتيه من طلاب الجامعات أو التجمعات الحزبية والسياسية المختلفة وفي كل مرة يناقش الشيخ محمد الغزالي أوضاع الشعب المصري وكل الشعوب العربية والإسلامية ولا يترك فرصة إلا واستغلها للتنديد بالاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي وحتى ممارسة النقد الذاتي للحركة الإسلامية، وظل الرجل مدافعًا حتى آخر يوم في حياته، حيث لفظ أنفاسه الأخيرة، وفي أوائل مارس ١٩٩٦، رحم الله الرجل وجزاه عن أمته خيرًا.

الشيخ عبد الحميد كشك

١٩٣٣-١٩٩٦م

الخطاب الجماهيري

لا شك أن الشيخ عبد الحميد كشك يمثل ظاهرة هامة على أكثر من مستوى، وهو نموذج فذ لعالم الدين المرتبط بقضايا أمته والقادر على التعاطي الواسع والمؤثر مع أوسع الجماهير، بل أبسطها أيضًا، فالشيخ عبد الحميد كشك استطاع أن يوصل صوته إلى الملايين وربما عشرات الملايين، وربما لم يتفوق عليه في هذا الصدد إلا الإمام الخوميني رحمه الله، وهو قادر على تحريك هذه الملايين وقادر على مخاطبتها بلغة سهلة وبسيطة ومفهومة ومؤثرة، وعاطفية وعقلية في نفس الوقت، إنه شيخ جماهيرى بكل معني الكلمة، والأخطر في المسألة أن جماهيره كانت من الفلاحين الفقراء والعمال الكادحين، وأصحاب الحرف وفي نفس الوقت من الموظفين والمهنيين وسكان المدن، بل وكبار المثقفين أحيانًا.

وإلى جانب هذا فهو رجل دين لم يركع لحاكم قط، ولا راعي مصالحه الشخصية، ولا خاف يومًا في الله لومة لائم، وهو منذ بدء حياته وحتى مماته تعرض لحظات كثيرة من الاضطهاد بدءًا من السجن مرتين وانتهاء بمنعه من الخطابة على منبره في مسجد عين الحياة بحدائق القبة بالقاهرة حتى يوم موته!.

والطريف أيضًا أن الشيخ عبد الحميد كشك امتلك لغة ساخرة ومثيرة للابتسام وفي نفس الوقت شديدة القسوة على ما يراه فسادًا أو استبدادًا.

ولا شك أن مدرسة الشيخ كشك في العمل الدعوى والجماهيري تستحق الدراسة، باعتباره رمزًا كبيرًا أولاً، وباعتبار قدرته الفذة على الوصول إلى أوسع الجماهير الشعبية مهما كانت درجة ثقافتها، بل وقدرته على إقناع وحشد الملايين وتعبئتهم من أجل قضايا الإسلام.

ولا شك أن الشيخ عبد الحميد كشك قد قدم للإسلام والمسلمين خدمات ضخمة من خلال خطبه وأحاديثه ودروسه وكتبه، ولا شك أنه تمتع بموهبة خطابية نادرة، وأنه كان شيخا مناضلا ومجاهدا وشريفا، وليس غريبًا أن تجد أشرطة الشيخ عبد الحميد كشك تذاع ليل نهار

في حواري المدن والقرى وفي الأزقة والنجوع، وفي المناطق الأرستقراطية على حد سواء، بل وأن تسمعه من ميكروفونات معلقة فوق المساجد، أو من محلات العصير أو الكباب، أو حتى من المسجلات على عربات الباعة الجائلين أو سيارات نقل الركاب، وأن تجده في كل مكان في مصر، وأيضًا يمكن أن تجده في أمريكا وأوروبا وآسيا، وأيضًا في المغرب والجزائر أو الأردن وسوريا والعراق أو داخل الأرض المحتلة وهكذا، حتى لقد أطلق عليه البعض ظاهرة « كشك فون »، ليس هذا فحسب، بل إن شخصًا ما مصريًا أو عربيًا أو أجنبيًا لو جاء إلى مكان في القاهرة وسأل عن عنوان الشيخ عبد الحميد كشك لوجد على الفور من يعرف هذا العنوان، ويدله عليه، ولو أنك أرسلت خطابًا مثلاً على المظروف كلمات الشيخ عبد الحميد كشك ـ القاهرة، لوصل الخطاب إليه بلا أي معاناة، ولهذا الأمر دلالته على كل مستوى.

ولد الشيخ عبد الحميد كشك عام ١٩٣٣ م في قرية شبراخيت بمحافظة البحيرة، في مصر، أصيب بالرمد الحبيبي في طفولته وفقد بصره تمامًا في سن الثانية عشرة، حفظ الشيخ عبد الحميد كشك القرآن الكريم مبكرًا، ثم التحق بالمعهد الابتدائي الأزهري بمدينة الإسكندرية، ثم التحق بالمدرسة الثانوية الأزهرية، ثم بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر، وحصل على الليسانس في أصول الدين وعين في وظيفة إمام وخطيب بوزارة الأوقاف المصرية، وأخذ يتنقل من مسجد إلى مسجد حتى استقر بمسجد عين الحياة بحدائق القبة بالقاهرة ١٩٦٤م، واستطاع بفضل أسلوبه المتميز في الخطابة وبفضل شجاعته في نقد المسئولين والتصدي للفساد والاستبداد، وأن يشكل المعارضة العلنية الوحيدة في مصر في تلك الفترة، مما جعل الجماهير تتوافد على مسجده بكثرة، وقد أزعج هذا السلطات المصرية وقتها فاعتقلته سنة ١٩٦٦م بتهمة الإثارة ! وظل معتقلاً حتى عام ١٩٦٨، ثم تم الإفراج عنه، إلا أنه لم يعد إلى منبره إلا في عام ١٩٧٢، وتصاعدت شهرة الشيخ عبد الحميد كشك بدءًا من هذا العام وطوال السبعينيات، فتصدى للكثير من قضايا الفساد الأخلاقي والسياسي والاجتماعي والاقتصادي بأسلوب متميز ساخر وقوي، وكان يخطب الجمعة مركزا على القضايا العامة كما يقوم بإلقاء الدروس في مساء كل يوم تقريبًا في المسجد، وكانت مئات الألوف من البشر تتوافد على مسجده لسماعه، ورغم توسيع المسجد عدة مرات في السبعينيات ليسع هذه الأعداد المتزايدة،

إلا أنه لم يسعها بالطبع رغم التوسعات فكانت تلك المنطقة كلها تتحول إلى مسجد، مما يعطل حركة المواصلات تمامًا في كل يوم جمعة، ليس هذا فحسب، بل آلاف المسجلات كانت تلتقط خطبة الشيخ عبد الحميد كشك، لتعيد إذاعتها في كل مكان من العالم، وكان البريد يحمل الأشرطة إلى المصريين المغتربين، لأن تلك الأشرطة كانت طلبًا ثابتًا في خطاباتهم لذويهم، ليحملها المسافرون معهم إلى خارج مصر حتى أصبحت جزءًا تقليديًا في حقيبة كل مسافر.

وقد نجح الشيخ عبد الحميد كشك منذ عام ١٩٧٢ وحتى عام ١٩٨١ في تحقيق نوع منتشر وفعال من التثقيف الديني النضالي والانتقادي مما أسهم في زيادة رصيد الصحوة الإسلامية في ذلك الوقت وتوصيلها إلى أعمق الطبقات الشعبية وأوسعها، بل وأصبح هناك عدد كبير من الخطباء الذين ساروا على منهج الشيخ عبد الحميد كشك في الخطابة شكلاً وموضوعًا، فتصدى الكثيرون منهم لقضايا الفساد والاستبداد والاهتمام بقضايا العالم الإسلامي عمومًا مثل القضية الفلسطينية وغيرها، وقد نبع من هؤلاء الشيخ أحمد المحلاوي الذي شكل في مسجد القائد إبراهيم بالإسكندرية صورة أخرى من مسجد عين الحياة بالقاهرة، وفي عام ١٩٨١م تم اعتقال الشيخ عبد الحميد كشك وعدد من الخطباء الذين ساروا على منهجه في إطار اعتقالات ٥ سبتمبر ١٩٨١ التي قام بها الرئيس الراحل أنور السادات، وكانت تهمة الشيخ عبد الحميد كشك في ذلك الوقت وتهمة تلاميذه من الخطباء هي معارضة كامب ديفيد، والازدراء بدولة صديقة هي إسرائيل، ومن الملفت للنظر هنا، أن المظاهرات لم تخرج في ذلك الوقت احتجاجًا على تلك الاعتقالات، إلا من ثلاثة مواقع فقط، وكلها للشيخ وتلاميذه فهي مسجد عين الحياة بالقاهرة (مسجد الشيخ عبد الحميد كشك) ومسجد القائد إبراهيم بالإسكندرية (مسجد الشيخ أحمد المحلاوي) ومسجد النور بالعباسية بالقاهرة (مسجد حافظ سلامة)، في حين غابت المظاهرات والاحتجاجات تمامًا من مساجد الإخوان المسلمين مثلاً، وهذا يدل على العمق الجماهيرى لمدرسة الشيخ عبد الحميد كشك.

وبعد مصرع السادات في ٦ أكتوبر ١٩٨١، تم الإفراج عن الشيخ عبد الحميد كشك في يناير ١٩٨٢، إلا أنه كان قد صدر قرار بعدم رجوع الشيخ عبد الحميد كشك إلى مسجده ومنبره

في مسجد عين الحياة بحدائق القبة، ورغم كل الضغوط الشعبية فإن هـذا القـرار ظـل سـاريا حتى وفاة الشيخ عبد الحميد كشك في ٦ سبتمبر سنة ١٩٩٦ م.

الفهرس

فهرس كتاب

كفاح الأزهر